
المقامة الامية

الجزء الاول

أحمد العبدالله

جمعة الامي

بغداد - عراق

1977 - 1978

(الم) : هو ذا اسمي ، أو اسم أبي ، لكنه ، للدقة ، اسم جدي الأكبر ، كان رجلا كوفيا ، ارتاع للاوضاع التي صاحبت واقعة صفين وتطورت بعدها . كان كفيف البصر في تلك الايام ، بيد أنه كان يتمكن من امتطاء دابته دون مساعدة أحد . وهكذا فإنه بعد أن أدى فريضة الفجر ، وكان انصباح ربيعا ، امتطى فرسه ، وأمر زوجته وأبناءه وأبناء عمومته وبقية أهله وخلصاءه أن يغادروا الكوفة في الحال .

وفي الواقع كان صفوة آل (الم) يكابدون مرارة وقسوة في تلك الايام ، فاستحسنوا أمر كبيرهم ، وارتحلوا باتجاه الجنوب . وكان في غيرهم كلهم الذي رفض اتباع القافلة وحرد في مكانه ، غير أن الحيوان عندما استمع الى (الم) يقتلع عمامته من فوق رأسه الحليق ويقول : « يا رب صفي صفين ، يا رب المؤمنين والزنادقة والكفرة ، يا رب الجماد والنبات ، يا رب كل من هب ودب ، انزلني منزل صدق » تبع القافلة ، يترامح تارة قدامها ، ويتباطأ تارة أخرى خلفها ، حتى اذا وصل الركب الى الموقع الذي تقع فيه مدينة العمارة حاليا ، وكان الوقت مساء ، ترحل (الم) عن فرسه ، وصلى ركعتين ، ثم بقى في جاسته لوقت غير طويل ، قام بعدها الى فرسه فامتظاها وانحرف الى اليسار ، فسارت خلفه قافلته الصغيرة ، وظل يمشي بها يوما ونهارا وليلة حتى اعترضهم نهر صغير ، وعندئذ حرنت الفرس في مكانها ، وهتف الم من فوقها : أن لنا أن نترجل .

وفي تلك الليلة ، عندما أديرت فجاجين القهوة بين (الم) وأبنائه وأبناء عمومته وأهله وخلصائه ، وقبل ذلك ، وكالمادة ، كانوا قد تناولوا العشاء على مائدة واحدة ، وقسم الزاد بالتساوي والعدل بينهم قال (الم) بصوت مسموع : الليلة حات رحلة الطمانينة .

وقال أحد الحاضرين : سننمي له مرقدا في الجانب الغربي من النهر . ثم قال آخر : سنسمي مكاننا : بأدة (لام) . وفي تلك الليلة انشغل المرتحلون السابقون بحفر اللحد وبدق أوتاد بيوت الشعر ...

« ابراهيم »

« .. وكثيرا ما تهيا لي ، يا ابراهيم . ان سالمة لا تحبني ، او انها تتطابق مع افكاري وتتقاطع معها ، وتنجذب الى قطب آخر لا اعتقد بوجوده ، الروح . احدث هذا لانها مزيج من ارومتنا وارومة ملكة ، ام انها اعادة تركيب لهاتين الارومتين ؟ . وكما تعلم فانه لا اجيد تقليد افكار أبي ، ومع ذلك تظل المادة هي أصل كل شيء ، حتى هذي الخدعة الصغيرة التي نطوهمها :
الروح ... »

« ان أبي يظل هو الماضي ، واتعمم انني المستقبل . ويبدو لي أن سالمة ، لغاية يومه هذا تحمل أبي وتحملني وتحملك . والصعوبة الوحيدة التي القاهها حين اعيد فحص سالمة مع عقلي هي أنها تكون قطب الماضي بينما تحدثني عن المستقبل ، وتهوم في عالم لا عقلي حين تحدثني عن الروح . وتبدو عقلية أكثر مني اذ تطرح قضية الحرية ازاء السجن والقتل والصراع ... »
والحقيقي هو أن المسافة القصيرة التي كانت بيني وبينها قد اتسعت الآن . ماذا تسمى سالمة ؟ . انت تحبها . وافكر أنك ستقول لي : انها اغتمار الحياة . وسارد عليك في الحال: انها الخصوصية الوطنية لكل عائلة (الم) . ومن يدري ، فقد أوكن على غلط ، وقد تكون أنت على صواب .. »

« وليد الاحمد »

يوم تقارب الدورة أن تنتهي لتبدأ . يدخل أحمد العبد الله بيته ، متقدما في الظلمة الشفيفة ، والمدينة ما تزال نائمة ، من ناحية المسجد ، بعد أن يذخف في زقاق يقوده الى زقاق آخر . منغمرا في السكون الذي يسقط البلدة ، دون أن ينظر الى نجمة الصباح ، يتعمد على الارض أو ينكفيء اليها . خفيف الجسد حتى ليبدو من البعيد كما لو أنه شبح يتجسس طريقه ، لا فرق بينه وبين الاصوات التي يسممها من شقوق الجدران ، أصوات ديدان وحشرات طائرة ، ثم يرى جسده ، اسمر ناعلا ، ملفوفا بقماشة لا يستطيع تمييز لونها ، وعباءة من الوبر يدرج على ساقين تستدقان قبل القدمين ، ولكنه جسد متوتر يريد أن ينفلت من تلك الجاذبية التي تستدعيه الى الاعلى وتلك التي تشده الى الارض ، متكوراً يسير على حافة قوس لداثرة لا يمكنه أن يعرف طول نصف قطرها ، هامسا ليديه اليابستين ، حيث العروق في ظهر كفيه ، زرقاء ناعرة تبغي الانفصال عن اللحم والعظم ، بينما الهواء الآتي من الشمال وحده ، يستطيع أن يحله على الحركة في قدميه ، في انسياب النهر ، وميلان سعف النخيل ، لانه هواء يكف في تلك اللحظات عن أن يكون وسطا بين حيوات أخرى ، حتى ليكاد يفهم أن جسده ، في هذه الحميا التي تختشي بها أعضاؤه ، يتشابه ولا يتشابه مع كل الذي يحيط به ، وان هذا النفاث المستديم بين

رأسه وما حواليه ، يبدو مثل حلقات من سلسلة لا أول لها ولا آخر . ثم اذ يتبين من وجوده الجسدي بتلك الصياغة الهيكلية ، يستقر عنده شوق الافتراق عنه . فهو في تلك اللحظات من الابتكار ، أكثر احتمالا على أن يكون مفهوما بالنسبة إليه ، وأقرب منه في أي وقت مضى على معاينة قلبه ، ومخاطبة كل الحركات ، وما حواليه من أصوات وهسيس والتماعات وتتهذات وأصوات الصمت ، بتلك الانتباهات الفرحة الملتاعة ، وبذلك القبول باليأس والامل ، بينما تظل عيناه تندفعان الى امام ، الى أسفل ، الى الشرق والغرب ، تريدان تضمن هذا الوجود وتحويله الى صور قلبية ، صور هو وحده يعرف كيف تعيد تركيب ما يحيط به . صور تكاد تتحدث فيها الحيطان الى الجداول والظلمة الى النور ، وتنفسه هو الى هذا الهذيان الذي لم يتوقف بين الحجر وقطرة الماء في قعر النهر .

ثم يتوقف عند باب داره ، والليل يلطم نفسه متعامدا مع الارض ، مع تلك النقطة الوحيدة التي فيها جرم أرضه ، ومائلا الى الامام قليلا حتى ليكاد يمر في منتصف البعد الاق لنتلك النقطة الجرمية ، وهو يتحدث الى صمته : يا هذا ، كيف يتساوى الغلط والصواب ؟ وكيف يكون الليل أن يستكمل النهار ليصير يوما ؟ ولم يكن يتعذب لهذه الفكرة . قد يأسو أحيانا ، بيد أنه يرى أيامه متصله ليلا بنهار في نجود من الرمل ، وسفر غامض لا تسعفه الذاكرة في اعادة تركيبه ، سفر ابتداء من حيث يعرف ولا يتذكر ، سوى أن نجودا صحراوية ، وأبسطة لا متناهية من الصبير ، وجثث الحيوانات ، ورماد المواقد ، وبقايا حبال ، وهشيم حبال واوتاد ، وتساوير رموس ، تمتد في دوران ، وتور في امتداد ، ورقائم من الجاد بلون حائل تتحول بين أصابعه الى نعومة ، نعومة في غاية الرهافة والحساسية ، فيخط عليها اقوالا ، بصبح كثيف أسود اللون ، كلمات لا تضطرب في رأسه - لكنها تخر عليه ، من عل كالسيل العرم ، فيضع الحرف الى جانب الحرف ، والجملة التالية بعد التي سبقتها ثم اذ ينظر الى ذلك الذي تشكل ، يرمي به الى السماء وهو يصيح : يا رب الكافرين ، يا رب المؤمنين ... يا ربي . فتتجول الرقائم في الفضاء الصحراوي ، هادئة ومرنة ، وتختلط في الهواء ، فيرى - في منظار روحه - انه ما يزال في سفره نفسه ، في النجود الصحراوية ، او في أزقة المدينة قريبا الى تلك الحروف والجمال ، متعاندا في سيره وهو ينجذب الى الاعلى ، ومائلا معها اذ تميل الى الارض ، وهو ينجذب الى تلك النقطة الجرمية في كتلة الارض التي تشده اليها .

ان الحياة خيرة ، وكذلك الموت . ولاقضية هي في مبدا القبول . صحيح أن الافتراق عن الناسوت ربما يكون الصعوبة ذاتها ، لكن تجريب النفس والزام الجسد في اختبارات قمع ، تتحول بالسلوك الى اختيارات ، يجعل من

هذا الكائن الارضي وليا للسماء . الولاية ؟ اية فكرة جنونية كانت تتربص باحمد العبد الاله ؟ ولم يكن يرى في ذلك أي ضير ، وانه - وهو الذي يسكنه الحب - يمكنه أن يتعرف على العشق ، اذ بينما ناس المدينة انغمروا في الاحتفال اليرمي على قلوبهم ، او في تلك الاعمال البشرية الصرف يتصل احمد العبد الله بخيوط لا خصر لها بين الارض والسماء .

تلك هي ايامه ، احمد العبد الله ، وكان يعرفها بما فيه الكفاية ليجيد الحديث عنها في حياته ، حتى عندما يكون الليل على اهبة المغادرة ليمسح مجالا اصبح جديد ، اذ تبدأ كل الحيوانات والاشياء تتنفس يوما جديدا بعد أن يتقدم الهواء نازلا من المنحدرات البعيدة ، في شمال المدينة ، حيث يدخلها النهر ويقسمها الى نصفين .

ولم تكن تلك ايامنا : اننا لم نخترها ، كان ثمة بين البنائق وبيننا فاصلة صغيرة ، بيد انها كانت بقوة البون الشاسع . لقد اكتشفت أننا - آنئذ - كنا في الخرائب ، غرب المدينة ، حيث انتشرت بيوت الطين المحطمة ، والحشائش قصيرة السيقان ، أما بعد الخرائب ، فقد كان ثمة الضريح المقدس ، قبر (الم) ، ثم المنخفضات المائية التي سمعنا بها ، ولم يرها أحدنا ، الا احمد العبد الله ، عندما ذهب لزيارة وليد الاحمد ، بعد حادث دائرة الاستعلامات الوطنية .

قال احمد العبد الله يساور نفسه : ان (الم) يبكي اللحظة بلده ، لان صفين في زمن آخر ، بعثت من جديد . وكنت أقول صامتا : ليس ثمة أكثر لطفا من عقوبة الدفاع عن الحرية . هذا هو الموت المحيط بنا من كل جانب ، وما هي الخرائب الحاضرة والبيوت القديمة تستقبل سكونا جديدا . والضريح ما يزال في مكانه ، طالما من بين الاعشاب وحيطان الخرائب ، تنتصب ساريته بين دخان البارود الكثيف ، وكن احمد العبد الله يمسك بيده جريدة من سعف النخيل .

قال : خذ هذه .. فالخسارة ليست الهزيمة . وناولني العصا المجردة ، عندما كنت طفلا غالبا ما تصورت انني جندي لا يود احتراف القتل لكنه يتمنى أن يكون مقاتلا ، لذلك كنت أضع جريدة السعف فوق كتفي الايسر ، معلقة في الهواء أو مضطربة ، وأمشي فوق أرض حصباء ، عدت فيها طريقا ضيقا حيوانات الجر والخرافا وأرجل الرعاة ، بعد أن تغادر الحيوانات بساتين النخيل في التخوم البعيدة من الضفة الشرقية ، باتجاه شريعة الماء . أكان ذلك عالم الطفولة أم طفولة البشرية ؟ ان كل شيء لم يكن يرتهن الا لكونه حلما عذبا . وفي ذهني الصغير - يحدث هذا في بيتنا أو مع الصحاب - كنت أخترع حكايات الغزو والعراك الصعب بين المدينة والنسور الوحشية الهابطة من السماء على غير ميعاد ، فكان الاطفال يتبادلون نظرات الخوف خلسة ، فكنت

أضيف في الحال كيف أن النسور الوحشية تنهول الى كرات نارية هائلة .
تفترخ كرات أصفر منها وبشرا بشمي الخلفة مدججين بالسلاح ، فينسل
الصفار والفنيان من المكان واحدا بعد الآخر ، لأفاجأ بنفسي وحيدا وقد خسرت
لذة استماعهم . غير أن خسارتنا في الطفولة لم تكن خسارة ، فطفولتنا
الرخية المشبعة بروح البطولة والامثال لتاريخ الاجدد ، كانت كافية لان
تجعل الفريقين المتقابلين ينطرحان على الارض من تعب العراك الاخوي ،
حيث لا غالب ولا مغلوب ، فتدخل البهجة البريئة الى قلوبنا ، بعد مناوشات
بالعصي والايدي المتسخة وتراحم الاجساد المعروقة دوما . أما الخسارة فيها بعد
الشباب . وفي الوضع الذي عشناه في الخرائب ، فقد كانت من طراز آخر :
لقد انطوت رجولتنا على حالة من التشبث بأن مدينة (الم) معافاة وخالية من
الاثم ، وانها تحولت الى ملجأ لأولئك الذين يفرون من العدالة المنتهكة في مدن
كثيرة مجاورة . العدالة : نعم ، ولا شيء غيرها . فالمساواة تبدو وهما أو
هي الوهم بعينه . وكان وليد الاحمد يقول لي : المساواة تعني عودة البشرية
الى عذريتها الاولى ، هذا هو طريقنا الجديد . فأقول له وأنا أنظر في القرآن :
كما قال أبوك ، هذا لا يحدث الا في الجنة . ينظر الى من عينيه الصغيرتين
ويخبرني بطريقة من توصل الى يقينه : أنت تتحدث عن وهم ، قد أعذرك الآن
فانت فنان ، ولكن دعني أقول لك : ليس ثمة سوى المادة ، انها الاولى
والاخيرة ، هي الظاهر والمستقر ، أما الله فخرافة ، وأبقى مسمرا في مكاني ،
انظر الى عينيه الصغيرتين وظافره المبرودة وشعر راسه المتمرد . وكنت
أجد في ميلا الى افكاره ، وكنت أحس انه لا يجيد تنظيمها ، بيد أن عقلي لم
يكن على استعداد لانكار وجود الله ، وهكذا كنت أقول له دوما : اثبات الحالة
يعني انكارها أيضا ، وانكارها اثبات لها ، اليس هذا هو الجدل ؟ وعندما
عالت أحمد العبدالله بما يدور في رأسي ، تبسم في وجهي وقال ضاحكا :
يا ولدي من هنا يبدأ الخراب ، فكيف الامساك بطرف حبل الفوز ؟

كنت معه في الطريق الى المسجد . فادار وجهه الى وقال : الكلام الجميل
ليس صحيحا باستمرار . وأضاف : أن الغزو يبدأ من الداخل باستمرار ، قد
يسمي وليد هذا بالطاير الخامس ، ولكنه الحقيقة ، وقبل أن ندخل المسجد
أكمل قوله : استمع الى وليد بعقل . ولكن أياك أن تدخل سالمة أو تستبدلها
به . وعندما جلس في باحة المسجد ، متربعا ينظر الى جيرانه ، انطلق صوته
دون أن يوجهه لاحد : اننا معرضون للغزو في أية لحظة ، وأراد أن يقول
شيئا ، لكن رجلا من الجوار سأل : لماذا مدينة « لام » هدف للغزو ؟ قال
أحمد العبدالله : سيحد هذا لانه من طبيعة الاشياء ، ان الصراع قائم بين
الارض وجذر النبتة ، ثم اذن بين الانسان والانسان ، ألم تذكروا قصة
هابيل وقابيل ؟ أو كان محمد علي غلط ؟ ثم حذر الجميع : لا بد من تعلم

حرفة القتال واجادتها ، فالمدينة التي لا تقا تل تكتب صك موتها بدماء
أبنائها . وإذا سكت ، ران الصمت على الجميع ، غير أن أحمد العبدالله
استمر ينظر الى أبناء جلده ، بينما انبرى صوت ليقول :

- يا شيخ أحمد ، كلامك يببلل الناس

لم يرد أحمد العبدالله بشيء ، فاستمر صاحب الصوت :

- اننا اقرباء ومتحدون .

ومرة أخرى تصرف أحمد العبد الله وكأنه لا يستمع الى ما قاله صاحب
الصوت ، الا أن الأخير تساءل :

- عن أى قتال تتحدث أيها الشيخ الجليل ؟

تحدث أحمد العبدالله هادئاً :

- قل لرئيسك أن يخشى الله ويحترم البشر .

اضطرب الرجل قليلا ، فقد عرف أنه أصبح مكشوفاً لكل الذين حضروا الى
المسجد في ذلك اليوم ، وأن أحمد العبدالله اختصر عليه الطريق الطويلة لتلك
الاستشارة الاحتياطية التي ما زال في رأسه ، ثم قال بصوت متخافت :

- هل أقول له ان الشيخ أحمد العبدالله يجاهر ويدعو الى احتراق أهل
المدينة مع بعضهم .. هل أخبره أنه مثل وليد الأحمد يدعو لصراع الطبقات ،
ونكران الله ؟

وبصوت أجش رنت فيه كراهية عظمى قال أحمد العبدالله :

- قل له .. أحمد العبدالله يقول : أنا لا أخشاه .

انتفض الرجل وهب واقفا ، والقى نظرة غامضة على أحمد العبدالله الذي عاد
الى الصمت بعد أن طأأ رأسه نحو الأرض .

وكان ذلك مفاجأة لي ، فقلت : لم تتح لي فرصة القتال ، فنظر الى
الأرض مغمما : هكذا أنتم وراور بدون فشكك ، أنتم لا شيء ، واستمر ينظر
الى الأرض . أما في ذلك اليوم البعيد ، حيث التقيته بعيد العشية . وكنت
فتيا مغرما بمراقبة الظواهر ومراجعة كرايس صفراء عتيقة ، فلم يكن ينظر الى
الأسفل ، استوقفته ، كان يرتدي عباءة من الوبر موشاة عند الصدر والكمين
بخطوط سوداء متعرجة ، وكان بطوله الفارع إذ رأيته يقدم من نقطة الضوء
البعيدة ، مثل نخلة وحيدة في أرض يباب . لم يبال في أول الأمر ، لكنني
الحفت عليه التحية والابصار الشؤر . كان فتيا ، وكان وجهه يلصف وتبدى
لي كما لو أنه خرج من الحمام الشعبي الآن ، وكانت بشرة وجهه الاسمر
متغضنة عند أسفل عينيه . وعندما مديده الى وضغط على كفي ، أدركت أنني
أصبت السلام . كان جبارا في وقفته العمودية ، ولمحت التماعا في عينيه ،
وكان فصاهما يلزبان في حركة حذرة مستريية . انه أبي . وطويت الفكرة داخل
فؤادي . لقد أتيت اليه من جنوب المدينة ، حيث يقع بيتي ، لاراه من بعيد

كما تعودت ذلك منذ أربع سنوات ، لكنني اذ رأيته يطلع ، بطوله الفارع ، من نقطة الضوء البعيدة ، في مشيته الجبارة ، انخزل قلبي ، وأسرعت أسير الى جانبه .

قال : - غريب

قلت : - لا

قال : - كأنني لم أرك قبل اليوم

قلت : - أنا دائما أراك

قال : - لماذا . ماذا تريد مني ؟

قلت : - ربما لانك .. ربما لانني أريد محادثتك !

قال : - لماذا ؟

قلت : - لأشعر بالأمان

قال : - ومن أخبرك أنني أشعر بالأمان

فرددت بصوت خافت :

- استغفر الله العلي العظيم .

توقف في مكانه في الحال ، وأرسل بصره نحوي ، لقد رأيته الآن بعيونه التي لا تحصى . وهتفت في داخلي : ان قلبه يرادني بكليتي .. فابقسم في وجهي ووضع يده على كتفي .

- لعن الله العمر . أنت إبراهيم ، إذن ، كيف نسيت هذا .. ؟

كان الهواء خفيفا في ذيل الزقاق الذي وقفنا فيه - حدث ذلك في مساء صيفي - وكانت روائح البنفسج والدارنج والرطب والارض المسبخة تشتعل في ذلك الليل المظلم ، وشعرت بالفرح لانني استوقفته ، لقد اعلنت لذاتي انتمائي له ، وازداد فرحي لانه حدثني ، فقد كان في الايام الاخيرة لا يقف مع أحد ، ويشك في كثيرين من أبناء بلدة أبيه ، خصوصا بعد ان اختمى وليد الاحمد بذلك الطريقة الغامضة ، غير انه اذ ركز في عيني متوقفتين بعد أن سألته « لماذا تقول انتم وراور بدون فشكك ؟ » ، مال الى الامام قليلا . ثم سئل واستراح برهة ، واستدار دون أية كلمة . وللمفاجأة بقيت منشغلا في مكاني ، انظر اليه يسير متطاولا ومنكفئا كما لو كان سيقع على وجهه في الخطوة التالية ، فابتغيت أنني ضيعة فرصة العمر ، لان الرجل أراد أن يقول شيئا ، أو انني لم أكن شجاعا بما فيه الكفاية لاستل منه ما كان مغموما في صدره ، فاعطيته قفاي وسرت وأنا انظر الى الارض .. وكان العريف الذي نزع شاراته الثلاث من عضده اليمين ، ينظر الى الارض تارة ، وتارة أخرى الى الاشكال الافعوانية التي صنعتها نيران الحرائق ، مأخوذا بهول الذي حدث ، كان - عنيد - لا ينني يبربر أو يطلق أصواتا مهمومة : « ضاع كل شيء » وكذت مثله - فعلا - أحس بضياح المدينة ، على انني تذكرت سائلة :

خرجت من بيت أحمد العبد لله حاسرة الرأس ، وهي تعيط : الاطفال ، انهم يقتلون حتى الاطفال ، كانت تمسك بعضا من جريد النخيل وتلوح به نحو السماء ، عارية الصدر ، حافية القدمين ، كما لو أنها خرجت باعجوبة من بين ايدي زمرة من الجنود الهمج المتوحشين . ثم تحول صوتها الحلو الرقيق الى نوع من اصوات الغضب ، وعندما رفعت ذراعها الى الريح ودفعت بأحد الاطفال الى السماء ثم عادت وتلقفته وقربته من صدرها أدركت أنها تعاتب الله وتتأدي على أحمد العبد لله وتتدب وليد الأحمد وتتهم دائرة الاستعلامات الوطنية . ولم تكن سالمة متدنية ، ولم تخالف أباهما أو تخرج على رايه ، وهكذا رايتها تعيط : أين أنت يا أبي ، ويضيع صوتها في الضجيج والصراخ والحويل أدركت أن أحمد العبد لله يسكنها وانها تتقبله . كانت متوحشة فعلا ، وتقاتل بطريقتها الخاصة ، تنتقل من مكان لآخر ، تحمل اكياس البارود وصناديق العتاد ، وطناجر المياه ، وتزق بين آونة وأخرى : أين أنت يا أبي . وتخيلات أنها تريد أن تشكو له أمرا ما ، بينما كان أحمد العبد لله يقف قرب النهر ويعاين السماء وينهرها بجريدة من سعف النخيل وهو يدمدم : لهم الجريمة وأنا الفوز غير أن الغزاة كانوا أسرع من أية نجدة سماوية ، فهم جاءوا من السماء ، أو هكذا رأيت بدايات الكارثة . وفي الأصفى الغربية كانت الصخرة أمامي في صورتها الواقعية : لقد نزل المطر مزنا ، مردولا مثل مزن الطلقات التي فاجأتنا ، ولم تكن الأرض تستقبله بالمودة التي نعرفها ، رفضته كما يرفض الوليد صمغ الحليب الذي ينز من حلمة الثدي بعد ساعة على الولادة . وكما يكون الثدي المتورم متسخا بذلك السائل البني ، كان الاتساع الأرضي أمامي ، يبدو قابلا للوصف : اتسخ الطين بامتدادات هلامية وأشكال كبدية من الدم والامعاء المقطعة والاحساد التي بلا رؤوس ، والاندراع والارجل المرمية هنا وهناك ، وتناثرت حوذ الجنود وشارات الضباط الملطخة بالطين ، ومن خلال الابخرة والأشكال الافغانية للهب والدخان ، رأيت مئات الجثث تمددت بوضعيات لم تخترها ، وخيوطا من الدم بين مفاصل أصابعي وفوق ملابسي . لم أكن أقاتل في ذلك اليوم ، كنت اصطدم بالقتلى أو أقع على جثثهم ، ولم أكن أحمل أي سلاح في يدي ، فالأسلحة كانت ممنوعة بأمر دائرة الاستعلامات الوطنية ، حتى في ثكنة الجيش ، التي تقع في بساتين المدينة الشرقية ، كانت الأسلحة باردة ، ومن دون أي عتاد . غير أن موت أصحاب الوجهة التي كنت الأميها يوميا جعلني أؤكد لنفسني هذا الرأي : ذات يوم ساسجل كل تاريخ هذه المدينة المنكودة .

وكانت جريدة السعف ما تزال في يدي ، وأنا أخط بعيني أخيرا على وجه أحمد العبد لله ، فتفادى نظراتي والتجا الى الأرض ، قلت له : هذه ليست عزاء ، وهزرت الجريدة في وجهه ، فانطوى على نفسه وتحصن بعبائه وأخرج

لفافة متسخة وأخذ يحضن . كان وجهه مصفرا ، وما زال القذى في أمواق عينيه ، ولقد توقف الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل قبل برهة ، ولا أدري من الذي منحني تلك الجراءة لان انصب مجلسا للمحاكمة : اننا مهديمون ، فهذا الخراب لمدينة « لام » التي تشكلت على امتداد عصور موغلة في القدم ، لم يكن ليتم بهذه السهولة ، لولا الجهود التي تضامنت جميعها على لباسها ثوب الذل . كان العريف خائفا ، مرعوبا ، وكانت ملابسه رغم اتساخها ما تزال انيقة . وقلت في نفسي : ان الجنود الذين يهربون من الخدمة باستمرار وتسلط رجال دائرة الاستعلامات الوطنية على رقاب الجند ، له باع كبير في خلق هذه الجريمة ، وكان احمد العبدالله يتابعني حتى خلت أنه يقرأ أفكارى الصامتة فصرخت فيه : وانت .. ماذا فعلت .. لقد كنت تهوم فقط وتحدث ، كحديث المسجد ، دون أن تتعلم حرفة القتال . كنا نحن الثلاثة . ابناخ ذري الماساة تحققا ، ولم يخطر لي كيف التقينا ، هل اننا نجونا لاننا مربنا ، أم لان الرصاص كان قليلا ازاء الاعداد الغفيرة من الرجال والجنود والشباب الذين تجمهروا عند رقبة الجسر الوحيد الذي يقود الى الضفة الغربية ... وعند هذا المكان ، يمينا أو شمالا ، تنتشر المقاهي الصغيرة ويتجمع باعة الارصفة ، ويعرض قرويون يأتون من امكنة بعيدة البيض والدجاج ومساحيق التجميل الشعبية . والمساومة وحدها بين رجل ورجل ، وامراة وأخرى ، سرعان ما كانت تتحول الى علاقة كبرت واتسعت شيئا فشيئا لتترك علاماتها على كل عوائل المدينة . وشاهدت المدينة بعد ذلك ظهور وسطاء في البيع من أهلها ، وأخذ مواطنون يقفون عند رقبة الجسر انظفارا لمن يقودهم الى العمل ، وفي غمرة حركة واسعة من البناء والبيع والشراء ، ظهر العسس والشرطة ، ونما العرف ليتحول بعد ذلك الى قانون ، وهكذا وادت مدينة جديدة في رحم مدينة هائلة مطمئنة تأسست بين دق اوتاد بيوت الشعر وحفر لحد (الم) كانت مؤسسة جديدة .

مدينة ، أو مملكة للذباب ، والباعاة المتجولين وطلاب المفامرة ، نترامى على الضفة الشرقية للنهر ، غير مكتثرة بهذا الذي يجري لها ، بل انها قبلته ، وزاحمت الغرباء على الارصفة التي تطورت الى دكاكين ، وأخذ العسس يمنعون أي قادم غريب من دخول المدينة الا بإجازات مرور خاصة ، وكانت مدينة « لام » فرحة بهذا الذي يتم ، وصار شيخ المسجد يطنب كثيرا في مدح اولئك الغيورين من أبناء المدينة الذين يتبرعون بترميم ما يهتدم من حيطان . وكان احمد العبدالله إذ يذكر ما يقال له عنها يقول متبرما : مدينة لام لا بد أن تغادر موقعها الاول ، هذه هي طبيعة الاشياء . وعندما ظهرت مجموعات كبيرة من الفئران تحت الجسر القديم لم يعرها أحد أي اهتمام .. وفي يوم تال عدد ما كان الناس يراقبون فيالق الفئران تحت الجسر تعترك

فيما بينها ، لم يبذروا اي تعليق ، غير أنهم دعوا رقابهم الى الضفة الغربية ، عند ما ظهر احمد العبدالله والى جانبه طفلة لم تتعد العاشرة ، سوداء العينين ، دقيقة الانف . كادت تلك سالمة ، التي كثيرا ما كانت ترافق احمد العبدالله قبل ان تبلغ الرابعة عشرة ، وبعد تلك السنة لم تعد تخرج معه في نزهاته المعتادة في سهوب الضفة الغربية ، وفضلات ان تبقى في بيته الذي يشرف على المدينة ، فوق تلة ترايبية متماسكة في القسم الشمالي من قسمها الغربي . وعند هذا المكان ، كان يمر ، ايضا ، موكب العزاء التقليدي الذي يستمر طيلة شهر صفر ، حيث يكسر الناس الجرار عند عتبات البيوت ، ويوزعون عصيدة الحنطة تقريبا الى الاولياء ، في حين ينشط باعة الارصفة وأصحاب الدكاكين ، وتكثر الوجوه الغربية في المدينة . ولم يشاهد أحد من الناس احمد العبدالله يسير في اي موكب عائلي ، كان يسير مع فرق المواكب جميعها ، مع ابنه وليد الاحمد ، على الرصيف ، متثاقلا ومهموما ، يكاد ينكفي على الارض . ثم اما اختفى الشاب في ظروف غامضة ، ظهر الشاب في حولين مع سالمة ثم دأب على الظهور وجيدا في الاحوال التالية ، لكنه كان يقترب من تجمع نسوي تتوسطه « ملكة » بثيابها السوداء ، وفتياتها الثلاث يحملن صينيّات الشموع من حرلها ، وهي ترفع صوتها بالبكاء والعويل وطلب المغفرة . لقد نبتت ملكة في أزقة مدينة « لام » ، مثل زهرة برية . عند ما وفدت مع مجاميع الباعة المتجولين واشتغلت ببيع الحناء وقشور الرمان المطحونة ، ثم ابتاعت نزلا قريبا من سكن احمد العبدالله . لم تكن أنواره تطفأ حتى الصباح ، قال عنها الجيران انها تأوى اليه الغرباء . وقال البعيدون عن بيتها : كانت تجالس صيادين ومتعاطلي اميون يمضون الليل في ضحك وعويل وثغاء . ولم اكن أرى شيئا جديدا في « ملكة » ، قبل ان تموت سوى انها كانت تنظر الى وليد الاحمد بحب غامر . كان في تلك السنوات صبيا صغيرا ، اعتاد ان يلزمه ، وعندما نمر من أمام بيتها كان يدير بصره عن بابها . وفي ذات يوم ، بعد ان كبرنا . سألني وليد الاحمد : لماذا كان أبي يتردد على بيت ملكة ؟

عندما شاهد بعض سكنة الحارة احمد العبدالله يدخل بيت ملكة لأول مرة ، التقت أعينهم في صمت .. ثم لما رأوه مرة ثانية وثالثة استنكروا عليه ان يثمن بيتا موبوا ، غير ان احمد العبدالله لم يعر اهتماما لكل ما كان يقال ، لذلك كان ينظر اليها من الجانب الثاني ، مجللة بالسواد ، في موكب صفر التقليدي ، دون ان تنبج عليه امارات الكره أو المحبة . كان يمشي بكامل جسده ، اما عيائه فقد كانتا شاخصتين ، الى حيث تكون ملكة ، لامتنتين حزرتين ، تلويان داخل محجريهما ، تتفرقان شيئا مستريبا او غير قابل للاعلان ، أو حتى مجرد التلميح . كان خائفا كمن ينتظر وقوع فاجعة ، وفي تلك المواسم سمعه بعضهم يردد لنفسه : مدينة موت .

ومع الموت الذي شخص عند رقبة الجسر ، كانت التفاصيل فائضة وغير ضرورية بالنسبة لنا ونحن في هذا الموقف ، مع أنها تظل الامكانية الوحيدة المتاحة لوصف ما تم في ذلك اليوم او ايجاد تبرير له . ولكنني سأظل أتساءل ، ما قيمة اي تبرير يترادف مع القتل ؟ ولماذا كنا نحن هدف القتل ؟ ان الدهر الذي عذب اجداد (الم) وحده هو الذي يقدم جوابا شافيا ، وكنت أناقش في وحدتي الاخيرة ، وأنا ارى سالمة قد تجاوزت الثلاثين ، والطفلة الصغيرة تلعب أمامها : ان كل شيء في حركة وتناظر وتجاذب ، وعقل هذه الحركة والتجاذب والتناظر وحده يستطيع ان يرى الاشياء بوضوح . ان العدالة لا يمكن ان تكون خارج الجريمة ، وأحيانا اقول : كل شيء وهم ، ما دام كل شيء يحمل معه الغازه . ان القرى القديمة تعرضت الى اباداة ، مرة بالصاعقة ، ومرة تالية بريح عاتية ، وكانت النار تطهيرا لمن أخرى تلفت . غير ان معنا جديدة كانت تنبت ، وعروقها تمتد بعيدا في ذلك الهشيم الذي خافته المدن المباداة ، وهكذا يرتبط الموت بالحياة ، وتكاد ان تكون الحياة هي الحالة المؤقتة ، بينما الموت هو الحقيقة الوحيدة الخالدة . لذلك فان دورة الزمن عادت من جديد وتوقفت عند مدينة « لام » . ثم ان هذه المدينة لا بد ان تكون قد قامت بفعل الموت تجاه مدن أخرى ، وقد يكون ذلك بصيغة أخرى . ترى .. لماذا كان الناس الغرباء يقدمون لنا دون غيرنا من المدن ؟ ، بالتأكيد كنا نقدم لهم الحياة الرخية ، ويقدمون لنا بدايات الموت . والذي حدث قبل ان نصل الى هذه الخربة كان يمكن ان يحدث في الكوايس فقط . كان الصباح مثل أي صباح آخر تستقبله المدينة ، حيث اعتاد احمد العبدالله ان يذهب ، قبل ان يطلع ، الى المسجد . حينها يكون الصباح جنيئا ، والريح الخفيفة المحملة بروائح الارض والحيوانات والبشر والزهور البرية ، تنزلق على الارض الحصباء من الضفة الغربية ، لتدخل بيوت المدينة - بيتا بيتا ، وتترك تأثيرها السحري ، على مهود الاطفال الرضع المغطاة بملاءات زرقاء وحمراء وخضراء وبيضاء ، ويمم وجهه شطر الكعبة . كانت صلاته وقوسا دائما ، واذ رأيته - حدث هذا قبل عشر سنوات - يسبل يديه مع استقامة الجسد ، ويرفع راسه نحو السماء ، خلّت أنه يتحدث الى وجود يعرفه منذ زمن سحيق ، ويخاطبه بلغة التصادق ولهجة المعاتب ، مع ان شفتيه لا تتحركان الا بالخشية ، وجسده يهتز الى اليمين والشمال ، مضطربا مأخوذا وهو يقول « اياي ، اياي من الكبيرة » ثم يحني قامته ويبرك على الارض ويسجد . لم تكن سجدة بشر . كان يبدو كما لو ان جسده يرسم قوسا هائلا ، مثل القوس المزهو الذي ينفتح من أسفله مباشرة باب المسجد ، ثم يهمهم ويكرر مهممات تتخللها أحيانا كامات مفهومة : « فرحي ، انني اعرفك . وعذابي انني اعرفك وتعرفني ، يا هر انقذني من حبك ، ويا أنت أنكرني حتى امتحن في

انكاري لك ، فانا فيك اول المبتلين وآخرهم وتعود المهمة غير المفهومة ،
 العقاب الذي يتبين من النبوة والصوت ، الخوف الذي يمشي به الصوت ،
 الاقتدار الذي لا يعرفه الا الصوت ، وكما لو ان المهمة اوصلته الى ما كان يريد ،
 او كشفت له ولها عزاء الوحيد يخاد الى الصمت ، فأحس به مثل جزيي
 جزينات احدى طابوقات أحد جدران المسجد ، حاضرا في وجود غائب ،
 وغائب اذ الشمس تشرق على جدار متماسك مزين بآيات من القرآن الكريم ،
 أو ببقايا رايات سوداء وحمراء وخضراء وبيضاء . تحولت الى مزق صغيرة ،
 بعد أن مرت عليها الاعوام ، وكان الصباح - آنئذ - ما يزال جنينا يتنفس
 هواء الليل الذي قارب الرحيل ، مترقبا تلك اللحظة الفريدة ، ليضيف يوما
 آخر الى تاريخ هذه المدينة التي تكونت على ضفة نهر صغير ، يشهد معها
 تقدم الليل والنهار ، يتسع باستمرار ، يتسع ويغير مجراه ، فتظهر فيه جزر
 صغيرة ، رملية أو طينية ، نبت فيها العاتول ونمت فيها الزهور البرية
 والقصب ، وسكنتها طيور غريبة ، مثلما التجأت الى ادغالها الكثيفة حيات
 وخنازير وبنات آوى وكلاب سئبة وخيول مجنومة .

ولكن عندما يبدأ الخيط الاسود يفترق عن الخيط الابيض ، يغادر
 أحمد العبدالله المسجد ، ويستمر صاعدا مع ارتفاع النهر ، تتطاير ذؤابات
 كوفيته في هواء صفيق ، تموج وسط النهر ، وتدخل البيوت المدينة بيتا
 بيتا ، ولم يكن أحد غيره بقي محافظا على هذا التقليد : الذهاب الى المسجد
 في جميع الليل ، ومغادرته قبل أن يفترق الخيط الابيض من الخيط الاسود ...
 ومع الخيط الاسود الذي انفصل عن الخيط الابيض تنفست الارض وتناثرت
 الخراف ، وابقظت الامهات الزوجات الصغيرات ، ثم اوجرت التنانير بعد ذلك .
 كان الاطفال يجلسون عند عتبات البيوت ، او يدرجون في أحواش البيوت
 بينما كان الشبان المتزوجون حديثا ينامون خليي البال بعد نهار من العمل
 الشاق وليل من الاتصال الجنسي المتقطع .

وفي الساعة السادسة توقف الصباح . توقف تماما عن أن يكون صباحا
 أو ليلا أو ظهرا أو عصرا ، وسمعت صوتا يعلو : هذا يوم الحشر . ومع ذلك
 لم يكن هذا الاعلان ينطوي على أية غرابة . فقد لاحظت ، مع شيء من الدهشة ،
 أن ذلك الصباح كان زمنا لم نألفه ، ولم أعش أو أشاهد صباحا مثله في ما
 بعد . ففي ذلك الوقت هبت ريح دافئة ، ما لبثت أن تسخن بعد قليل ،
 واحتاجت الزرايزير (وعاد الصوت يعلو : هذا يوم الحشر) ، والعصافير وطيور
 الفاخت والغربان ، وقوق الدجاج وصرخت الديكة ، وبدأت ارتال الهوام
 واسراب الديدان تبرز من شقوق جدر الغرف المبنية بالآجر غير المفخور ، ثم
 ظهرت حية سوداء الظهر بيضاء البطن في بيتنا ، واختفت في الحال بعد أن
 وققت على ذيلها ، وبرزت الفئران من مخابئها في البيوت ، أما في الضفة الغربية

من النهر ، الشاطيء الغربي منه ، فقد تكومت آلاف الفئران المملوطة بالطين
تعترك . بينما كان دخان يتصاعد من بيت احمد العبدالله ... وحده كان احمد
العبدالله في البيت ، في مخدعه ، في الطابق الثاني ، يطل من كوة صغيرة على
الشعشع القادمة من الشرق ، ولم يكن جذلا ، كان ينظر الى البروزات المنحنية
في الجدران الطينية والافاق البعيدة اقواس كبيرة وقويسات متناهية الصغر ،
في سعف النخيل ، واجذحة العصفير ودورات الهوام ، افواه الاطفال وسورات
المياه في النهر الذي يجاور بيته ، وكان يحس أنه قريب من هذا الذي يحدث
كله ، وداهمته في الحال فكرة أخرى : انني املاك معراجي وجواد الاعراج ،
وترجع قليلا الى الخلف فسمع الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل ، ثم
راى صورته في الغيمة الصباحية التي تسوقها الشمس البكر ، مكرامية
الاطراف ، مترفعة حد الكبر ، ومرتفعة حتى لا يمكن أن تظال ، وقال : ذلك
هو قلبي ، لا شيء أكثر أولوية من القلب ، حتى ان العقل يبدو منفذا كريما ،
يتطلبه هذا العضو الصغير ، ثم مرق البراق من امام عينيه ، كان مسرجا
وحاضرا للعروج ، مترفعا في مشيته الهادئة الواثقة - لا ، لم يكن يمشي ،
كان ينساب رقيقا وناعما . وجود أثيري : هوذا معراجي لانني تطابقت اذ
نظرت الى عيني بقلبي ، ولم تكن نفسي لوامة ، فهي الآن مع الغيمة ، لطيفة
بلا حركات ، شاردة لكنها تقترب من الارض ، لم يلتزم فوق ظهرها غبار ،
منطوية على هذا الاحتواء للفرح والسعادة . وراقته الفكرة ، غير أنه لام نفسه
في الحال وقال : « يا رب الكافرين وردي ، ولم يسمعه احد ، كان الصباح
يسوق الغيمة الى حيث تقابل كوته ، غيمة بيضاء تدور حول نفسها ، كما
لو انها تتمزق ، فتتجذب الى الداخل والخارج ، الى اعلى واسفل ، وكان
قلبا في الوسط يعترك مع اطرافها السائبة ، ولم يكن احمد العبدالله أرضيا بما
فيه الكفاية كان يلمس أرضيته في تلك الهجرات الليلية الى بيت ملكة فيلقاها
تطرق ساهمة فاتحة زيق ثوبها ليظهر ثديها ، فترفع اليه عينين ساهمتين ،
وتقوم على قدمين واهنتين ، فيطيل النظر اليها - لا ، لم يكن ينظرها ، انه
يعيد هذا الشخص الجسدي لامراة في الاربعين ، تمتد على يمينها ويسارها
رجال جاءوا يسمعون من اقاصي المدينة ، فناموا بعد ان ضربهم سوط المخدر .
ولم تكن شجاعتها كافية للمخاطبة . وفي مثل هذا الموقف تتقدم اليه ، تطلق
صوتا أشبه بالبكاء لكنه ينم عن ترحيب ، وتقبل يده ، فيكاد يقع على وجهه
من شدة الارتجاج - كنت رائحة الافيون تعبق في كل زوايا البيت وحجراته
الثلاث حيث الفتيات يتصاحكن ، ويعوي رجال أو يمشون على الاربعة ، أو
يصمت البعض منهم ، مقابو العيينين ، بينما كان آخرون ، وهؤلاء قلة ،
ينامون عراة على أرض مرشوشة بالماء . كان يعرف طعم الفترة التي تنوسط
الصحر والخدر - تلك اللحظة الفريدة التي تجعل النفس تمنلي وعبا وشجاعة

ولوما ، وكان يعرف ان هؤلاء الرجال الفقراء - لم يكن ليقيم بيت ملكة الا الفقراء ، فقد كان للاغنياء والسراة بيوت خاصة للهو وتناول الحشيش وممارسة اللواط والقصف - ينعمون بسكينة مؤقتة ، سكينة يشترونها بالعرف والعمل الفائنض والخيز الكفاف . الا انه وهو الذي ينسى نفسه اذ يشم رائحة الافيون ، يضع كفه اليمنى تحت ذقنها ، ويرفع رأسها اليه بطيئا ، لينظر في عيني حزينتين برغم الكحل الذي يسخم أسفل الاجفان ، ووجهه حفرته المساحيق الشعبية ، فيهم الا يقول لها شيئا ، بيد انه اذ يرى السحائب مبعثرات في سماوة الوجه المحفور ، يبرك على الارض ، حتى يلامس قدمي ملكة ثم يقبلها واحدة بعد الأخرى ، وهي واقفة لا تدري ماذا تفعل ، وهي تسمعه يقول « يا رب .. » فترتعد . تعثمت ، اول الامر ، انه يمزح اول مرة ، دخل البيت فهربت الفتيات ، ولاد الصاحون من الرجال بالفرار ، بينما استقبلته نصف مبتسمة . تصورت أنها تحلم ، فداخت ، ودارت بها أرضية الغرفة وسقفها ، لكنه امسك بها من كتفيها الواهنتين ، واستدار بكامل جسدهما نحو القبلة وقال : تلك هي الكعبة ، هيا امسكيها يا ملكة ، وأخذ ينفعهما دفعا خفيفا امامه ، وكنت تصرخ : سيدي .. انها تتقدم الي وليس انا التي اتقدم . واما توقفت استدارت اليه ، فرأت دمعا في عينيه ، وتغضن وجهه مثل حبة غنب مجففة . ولم يشعر احمد العبدالله بأي دفر ، وكانت مائة امامه مأخوذة بهذا الحضور المفاجي ، ومرتبكة من هول الذي حدث الآن ، الا ان ارتباكها ازداد كثيرا عندما رآته يخر على قدميها وينفخ يقبلهما ويقول : « يا رب الخطاة .. يا ربي ... هبني القدرة على الحياة مع القتلة » ثم ران صمت كثيف على الغرفة ، وكانت فتيات الدار ينظرن الى سيدتهن ، عارية الصدر ، تنحني على احمد العبدالله الذي كان يصرخ مستغيثا ، في حين كان الرجال المسطولون ينامون بدون حراس ... اما في الشارع ، خلف البيت ، فقد كان الاطفال يصرخون .. وكان ثمة صوت نحب وعويل .. وسمعت صراخا في البيوت المجاورة . ولما استعلمت من امي عن سبب الصراخ قالت غير معنية « عمل سنوان .. طفل تنفذ » ولم اعبا بما قالت ، ودفعت بجسدي خارج البيت . كان كثير من الاطفال يصرخون ويشيرون الى السماء ، في حين كانت السنة اللهب تخبوا رويدا رويدا في التناير ، وفي الفضاء الصباحي اسراب خفافيش وبوم وحدآت تسرع في اتجاه الغرب ، ترعق وتصفق بأجنحتها ، ثم ظهر جسيم غريب في فضاء المدينة .

كان مدورا ، ومثل كرة اللعب الكبيرة ، بهالة حمراء تحيط به ، وازير خفيف لكنه حاد ، أخذ يفرخ جسيمات أصغر منه ، وسمعت نفيرا من عند الثكنة ، فعلمت أن الجنود يستعدون لامر ما . بعد ذلك تحولت السماء الى لون بني خفيف ، وكان الجو شديدا بوقت الفجر ، واصدرت الكريات النارية

أصواتا غير مفهومة ، ثم أخذ يصل إلينا صوت ضعيف ، ارتفع قليلا قليلا ، صوت ناعم ورقيق ، لكنه واضح جدا : استسلموا . وفي الحال ارتفعت حرارة الجو . كان العرق يتصبب من أجسادنا ، وكنا نهزول والرصاص يتساقط علينا ، رصاص كثيف ، وصوت رقيق ناعم وحاد حد القتل لا يني يكرر الأمر : استسلموا .. و .. اختص أحمد العبدالله . كنت أسير إلى جانبه ، وملكه في الجانب الآخر من الشارع ، تتعزز على عصا خيزران ، لم يكن معها أي رفيق ، وحيدة وتطرق برأسها إلى الأسفل ، بينما كانت « سالمة » تبتعد عنها عدة أمتار دون أن تنظر إليها . ثم اخترقت ضوضاء الموكب صرخة ناعمة ورقيقة ، كانت سريعة إلى الحد الذي قهرمت انفي لم أسمع أي صوت ، وسطع في نقطة بعيدة من السماء لون قضي ، أخذ تفتت ، وتنفلت من ذيله السائب الطويل ألوان منشورية ، وهناك كان الاثنين المحبوس . رأيت أحمد العبدالله يطيل النظر إلى السماء الصافية . كان كل شيء بهيجا في الأعلى ، إلا الأرض ، فقد كانت مبتهجة بذلك العويل والنذب والصراخ . ورغم أن صوت ملكة كان شجيا وأنيسا حتى عندما تندب ، فإن أحمد العبدالله ظن أن الصوت الرقيق الناعم يأتيه من جانبها ، فحدق فيها ، وما أزال أتوهم أنه رفع كفه لها ، ثم لم سكت استمر الاثنين المحبوس . كان الاثنين يتضح الآن ، ويغمر فضاء المدينة والمركب التقليدي . وسالت نفسي : أي معذب يطلق مثل هذا الصوت المفجوع ؟ وحجب عني الفضاء السماوي الأجابه ، فالألوان المنشورية اتخذت شكل الموكب ، وكان هناك أناس بقامات طويلة وقصيرة ، هياكل عظمية مائعة بأغطية حمر وزرق وبيض بعضها يشعل بنيران تتذأب لتتخذ أشكال حيات وأجساد خرافية ، وكان ثمة من ينقر الدفوف ويدق على الطبول ، وكان من يصرخ طلبا للنجدة أو يبكي للغف والمغفرة ، على أن الحراس الذين يسيرون على جانبي الموكب كانوا يتصرفون وكان كل ذلك لا يعنيهم . كانوا طوال القامة ، ترتفع رماح فوق رؤوسهم ، بلحى طويلة تتدلى فوق صدورهم العارية ، وجدائل مصفورة تتسرب من جانبي الرأس وخلفه حتى أخصص أقدامهم ، ومن البعيد كان يأتي صوت النفير فينتجه موكب الهياكل العظمية إلى مصعده المجهول . في تلك اللحظات اكتشفت أن أحمد العبدالله ينظر إلى الأعلى أيضا . كان وجهه الأسمر يلتصق في وهج المصابيح النفطية ، ولاحظت عرقا غزيرا يتصبب من جبهته وجسده يرتش من أعلاه إلى أخاه ، لكنه داوم النظر إلى السماء ، كما لو أن النفير كان يستدعيه شخصا ، ولأنني صوبت إليه نظري وعقلي كلية ، حسبت نفسي أتخيل ذلك الذي رأيته ، بيد أن الاثنين المفجوع دخل سمعي دون مواربة بينما كنت - بحواسي كلها - متجها مراقبة المشهد ، ثم أخسست بعد ذلك ، بما يمكن أن أسميه خبالا فجائيا تابسني ، فقد سمعت أحمد العبدالله يرفع عقيرته بالنداء كما لو كان

في أعلى ذري الطرب والانشراح » يا هذا الذي لا تطاله المعرفة ... يفتتح
السبق .. ويتباعد الشدقان .. العوز الثاري يحولني الى واحد ، وانت الواحد ،
فلا اجد الجواب بوجدتي ووجدانيتك ، ولا بقوة الحق ، لانك خارج الاجتهاد ..
وكان الموكب يواصل تقليده السنوي . الندابون كثرة ، وعويل النساء
يتصاعد ولا أحد يعرف الذي يتم في الأعلى . ومع أن أحمد العبدالله استمر
يردد « يا عوزي الثاري ، لم يكن ثمة أحد يسمعه .

واذ ذلك أدركت أن لا بد من صرخة مني توقف الموكب . وحاولت . لكن
فمي بقي مغلقا ، رطل صوتي لا يطاوعني ، لقد أقفل على باب كل شيء الا باب
المشاهدة ، فدنوت من أحمد العبدالله الذي قال لي راعشا « يا ابراهيم ..
يا بني .. زملني .. فالجرس يدق ، القيت كوفيتي البيضاء على جسده ، وفي
الارض يتصاعد الصراخ ، وفي السماء كان ثمة صوت النفير ، وغيوم بيضاء
مثل ندف ثاج ربيعي تنموج تحت موكب الهياكل العظمية ، والانيب يتصاعد منه

فجأة خر أحمد العبدالله الى الارض يتلوى ويعيط « يا عوزي .. يا
قوس الدائرة الناقص ، كان البعض يتفرج ، وكان آخرون قد غادرتهم شجاعة
الاقتراب منه ، كان جسده الذي تقرب يرتعش مثل فرخ مبلل ، وتعفر وجهه
بالغبار ، الا ملكة التي اخترقت الموكب ، تستند الى عصاها ، ففسح لها
الندابون طريقا ، حتى اذا ما وصلت اليه جاست على ركبتها وملست جبهته
المتعركة بأصابعها البيضاء التي خلت الآن من أي خاتم ، واستمرت جالسة
اليه ، وهي تحدثه في اذنيه مباشرة والجسد يكف عن الارتعاش ، حتى اذا
ما هذا نهائيا رفع اليها راسا متعفرا بالتراب وسألها خافتا : « ملكة ، هل
سمعت صوت الجرس ؟ » وارادت أن تقول شيئا .. لم تكن جبناء ، ولم يكن
جنودنا يقبلون هذه الخلعة ، غير أنهم اخذوا في هذه المعركة غير المألوفة ،
ففضل كثيرون منهم رمي أسلحتهم على الارض والالتحاق بالغرب ، حيث
الخرائب والحشائش قصيرة المسيقان ، مروراً بالجسر الذي ينقوس على
النهر ، ويكون الإشارة الوحيدة الى الضفة الغربية ، كنا جميعا في الضفة
الشرقية ، وكان الجانب الآخر لا يعنينا الا بكونه مكانا غير مأمون الجانب ،
وقد يجعله ضريح (الم) آمنا ذات يوم . ومع ذلك اندفعنا نحو الغرب ،
وكأنت أضواء الكورنيش مشتعلة ، نتمتع بصناديق العتاد وأكداش البنائق
وعجلات المدافع وطناجير المياه وازرات الجذود وجثث البغال والحياد وكلاب
الشرطة النافقة . وعبرنا الجسر فعلا ، واستندت الى الخلف دون ارادة مني
فشاهدت برج دائرة الاستعلامات الوطنية يطاق اشارات ضوئية باتجاه
الكريات النارية ، والدخان يلفع الفضاء وروابي البيوت وأعمدة مانعات
الصواعق ومناثر المساجد ، بينما امثل الاطفال والنساء لأمر الصوت الناعم
الرقيق بملزمة البيوت أو الشوارع .

وما أن تجمعننا في شارع الضفة الغربية حتى داهمتنا فرق من النيران . كان ازيز النار وأصوات الصافرات مألوفة لدينا ، ففي السنوات الاخيرة ، تكون المدينة قد اختارت الصمت طويلا ، بعد صوت الصافرة الاولى الذي ينطلق من برج دائرة الاستعلامات الوطنية ، لتعود الحركة ثانية بعد الصافرة التالية ، اما الآن فان أية شظية من أية رصاصة تصيب جسد أحدا ترديه فتيلة في الحال ، ومع هذا كان الصوت الناعم الرقيق والحاد حد القتل يقول : استسلموا . استسلمنا . انزويينا نحن الذين كا زمن حسن حظنا اننا لم نعرف الى شظية في البيوت الوطنية المجاورة ، وبين أشداق الجداول الصغيرة المنسية ، أو فوق الحشائش قصيرة السيقان ، وكان القتلى ، أمامي ، ينامون دون حراك ، على امتداد الاتساع الارضي ، فوق الطين الذي تتصاعد من الابخرة ، ونحن مستسلمون تماما لما قد يأتي .

الاستسلام هو شظف عيش المحارب ، واللحظة التي يكون فيها الانتحار عملا صائبا . غير أن أحدا لم ير رئيس دائرة الاستعلامات الوطنية يظهر من بوابتها الانبوبية الكبيرة ، كما لم نشاهد أيا من رجاله في تلك الجموع التي هرعت الى الضفة الغربية ، لقد ذابوا راسا في امكنة لا نعرفها ، غير أننا سمعنا الصوت الرقيق الناعم ينادي : « على رجال دائرة الاستعلامات الوطنية الالتحاق فورا بمقر عملهم » . ومع انتهاء هذا الامر مباشرة جاء الحدث المفاجيء .

توقفت الكرات النارية في الفضاء وانقطعت أصوات الازيز ، وفتحت منها أبواب فجوات صغيرة ، تبعها نزول رجال بشعي الهياة ، أحاطوا بنا من كل جانب .

كانوا مخلوقات تكاد أن تكون آدمية . يرتدون ملابس خاكية مرقطة خضراء تميل الى اللون البني ، وبأحذية من جلد ذي لون أسود ، ثم تبعهم مخالفين قصار القامة ، يعانون مدافع أوتوماتيكية على أكتافهم ، أخذوا يتوزعون أمكنتهم في الاتساع الارضي كما لو أنهم خبروا المنطقة الغربية من قبل . والآن بعد هذه السنوات التي مرت على الغزو ، حيث يتحتم علي ذكر كل الحقيقة ، أستطيع أن أعرف مغزى تحذيرات أحمد العبدالله . لقد كان يعرف أن ثمة مدنا أخرى تدفع الارض باتجاه مدينتنا ، في حين كنا جميعا لا نطبق أي حديث عن الغرباء الذين سيقدمون ، كما قال أحمد العبدالله ، ويناامون حتى في مخادعنا الزوجية ، فقد حرمت دائرة الاستعلامات الوطنية أي حديث عن الغرباء الذين كان يتوقعهم أحمد العبدالله ، وعرفت في تلك اللحظة لماذا تنازل العزيف عن رتبته العسكرية . . ولماذا انحسرت معه وأحمد العبدالله في تلك الخربة . لم نكن نستسلم ، لاننا لم نحارب أصلا ، أو لم تكن ثمة حرب البتة . كنا نصادر ونساق مثل قطيع غنم الى المسلخ . كان الاحياء

يدرفون موقع السجن القديم ، فتقدموا اليه كأنهم منومون ، أما الاموات فقد استراحوا من غناء ما عانيناه فيما بعد .
وكنت واحدا من هؤلاء الذين لم يستريحوا .

وايام السجن ليامنا ، لاننا اخترناها ، أو لانها تحولت الى اختيار .
وبيصعب كثيرا على أي واحد منا أن يفرق بين الغزو وبين السجن . على أنني سأظل أتذكر ما قاله أحمد العبدالله بعد يومين من وصولنا الى السجن : اليوم يبدأ عذابنا الجديد . وكان عذابنا القديم ينطوي على الماضي بكونه ماضيا تكلس في الذاكرة ، أو في أكثر الاجزاء ايقالا في مخداتها . ان كل واحد من أبناء المدينة ابتدا يتشكل مع هذا العذاب دون أن يتيح لنفسه فرصة المصارحة . وكان الحرفيون وأصحاب الدكاكين يفتلون أبواب مصالحهم قبل مغيب الشمس بساعتين ، فقد قالت دائرة الاستعلامات الوطنية أن شبكة من انصار وليد الاحمد بدأوا يعيدون ترتيب ذاكرة أولئك المواطنين .. وعندما ظهرت ذات صباح عبارة « يا عمال مدينة لام اتحدوا » اضطربت دائرة الاستعلامات الوطنية ، وأصبحت على الفور وأمر تقضي باقفال المصالح قبل مغيب الشمس بساعتين . حتى الرعاة أخذوا يعودون من المزارع الى ضواحي المدينة في ذلك الوقت ، بينما عززت الحراسات الليلية في الأزقة والشوارع والسوق المركزي في البلدة . وكان على أصحاب البيوت أن يفتلوا أبوابهم - من الداخل - بأكثر من رتاج ، بعد أن أيدت دائرة الاستعلامات الوطنية أن هذا ضروري لحصر أولئك الذين يظهرون في الظلام ويكتبون على الجدران شعارات معادية . ولم يقل أحمد العبدالله شيئا بعد أن قرأ التعميم ، سوى أنه رفع بصره الى الأعلى وقال : مدينة المؤسسات الغامضة آفلة ، وأن الله لا يحب الأقليين ، وبعد ذلك ، عند ما اختفى وليد الاحمد بصورة غامضة قرأت في النشرة اليومية التي تصدرها دائرة الاستعلامات الوطنية ما يلي : « ثبتت للدوائر المسؤولة أن وليد الاحمد العبدالله آل الم يقوم بأعمال تخريب ، ويدعو الى عصيان أولي الامر ، ويعمل على تخريب المعتقدات والآراء الحميدة ، لذلك قررت دائرة الاستعلامات الوطنية وضعه في المحتجز الخاص بذوي الميول الهدامة ، ليكون عبءا لغيره ، ولتعلم الجميع أن مصلحة المدينة فوق أي اعتبار » . لم يعلق أحمد العبدالله بأية كلمة بعد أن قرأ الخبر ، بل ذهب الى مسجد المدينة مباشرة ، وجمع خطبا أشعل فيه النيران ، وظل هناك في الباحة ، ينظر الى خشب السدر الأخضر الذي يعاند الاحتراق وهو يردد بصوت مسموع « أيها العصف .. أيتها الطيور الابايبيل » ، ثم عندما التقاني عند رقبة الجسر ، في الظهيرة ذاتها ، رأيت زبدا حول برابطه وخاطبني غاضبا : « إبراهيم .. أما زلت لا تفهم ، لقد اقترب الانتقام » واستمر يمشي خطوات، توقف بعدها واستدار الى ، شاهدت دمعة تلمع في عينيه ، دمعة مكبرة ومتكبرة ،

وقال « لماذا يحدث هذا .. اليوم مع وليد وغدا مع سالمة .. وبعده تعم الفوضى المدينة .. يا ابراهيم ان هذا كله في سجل محفوظ .. وتيقنت في تلك اللحظة ، ان الفرصة باتت سانحة ، لان نعرف على بعضنا كثيرا ، لذلك سرت الى جانبه . كان النهر امامنا يرتفع ونحن نتجه الى بيته ، وظل صامتا ، لكنه كان محتتما ، وهكذا ابتدأت الحديث .

- قد يكون وليد على غير حق .
- لكن الدائرة ليست على حق فيما ارى .
- قد يكون ما تقوله صحيحا .
- يدعو وليد الى جنة ارضية
- هذا شأنه .
- وهذا مشاركة لله في امور خلقه
- ومن قال ان الله يرفض هذا ؟
- ثم انه ينزل الله الى الارض ، او انه يلغيه
- انتفض في وجهي :
- انت تقول هذا الكلام .. كيف تبيع لنفسك ان تنطوي على هذه القذارة ؟

قلت :

- يا سيدي انا اسال فقط ، ربما لا افهم
- لا .. أنت تعرف ، تعرف كل شيء
- توقفت متوقف هو أيضا فقلت :
- وليد يقول ان الانسان هو الله
- قال متأنفا :

- وماذا في ذلك .. تريد أن تكون الله ، اذن اسمع ..
كف شعر رأسي ، واخذ كياني يرتعش بأكمله ، وقلت في ذاتي : ان الولد يطور أفكار أبيه . ان (الم) تتكلم في صوت أحمد العبدالله ، ووليد يختزن كل تلك الذاكرة التاريخية من الهجرات والحروب وانتقاد العدالة . كان ينظر الى ، وكأنه يريد أن يقول : اتريد أن تسمع ، فقلت :

- اني اسمع يا سيدي .
- هل رأيت الله ؟
- لا يا سيدي
- لا تقتل سيدي .. الله هو السيد فقط .
- قبل لحظات قلت : الانسان هو الله
- وكرر هذا عليك اليوم وفي كل وقت .. ان المسألة أبسط من البساطة .
- الله هو الخير والعدالة والسلام والمحبة والصديق . كن هذه كلها تنطق باسم

اله ، أي تكونه .
كنا قد وصلنا الى بيته ، فطرق الباب سريعا ، فجاء صوت سالمة من
الداخل واهنا : من ؟ قال احمد العبدالله ..
- الله !

وكان هذا جزءا من عذابي وعذاب وليد وسالمة واحمد العبدالله ، لقد كنا
نبحث عن الله ، كل بطريقته الخاصة ، وحتى في تلك الايام المرعبة ايام كنا
في الخرائب فان فكرة وجود الله لم تفارقني لحظة ، غير انني تطيرت مما داله لي
احمد العبدالله ، وان كنت وافقته ، فالفكرة على بساطتها تربك أي انسان
حقيقي .. ومما زاد في ارتباكي دخول ثلاثة رجال من بوابة الخربة التي
التجأنا اليها . كانوا جنودنا . تعرفت عليهم من بقايا اخذتهم ووجوههم
الصفراء المزرقه . دخلوا علينا صامتين يجلهم الخوف واليأس ، ولم يرفعوا
اصبعنا بتحية ، انما نظروا الينا من عيون لا تطرف ، كان احدهم شابا لا
يتجاوز التاسعة عشرة يرسل الى نظرة من قارب على الاحتضار ، كانت
شفاته يابستين ، وخيل الى أنه يطلب ماء ، لكنه كان لا يستطيع التلظ
بحرف الميم . كان كالمزوم أو كمن يرى طائر الموت يصفع عينيه بجناحيه
ذاقويين . أما رفيقاه فتوجها الى الحائط مباشرة واسندا اليه ظهرهما . ثم
ترأصف الى جانبيهما الجندي ابن التسعة عشرة .

في تلك الهنيهة لم يتسن لي أن اجيب على تساؤل داهمني على حين
غرة : كيف اهتدى الثلاثة الى هذا المكان .. ومن هي القوة التي دفعت بهم الى
خربتنا هذه ؟ أتكون تلك القوة المقاتلة أم الله ؟ بيد أن الوضع كان مبهضا
لاي جواب ، فقد توقف في البوابة أحد الغزاة شاهرا سلاحه الاوتوماتيكي
لم يكن رجلا . انه الموت ، وفي تلك اللحظة فكرت ثانية : ماذا يجب أن أفعل ؟
ان الحياة تكاد أن تكون تافهة أحيانا ، ولكن أي شيء يعادلها اذا ما انتويت
فقدما ؟ لم أكن أفكر في الانتحار البتة ، كنت رأسي في قارب الطمانينة ، ان
كل شيء ، في هذه الخربة وخارجها ، يعيد ترتيب قدراته : القتل الذي
يكيفون الغزو لانتصار الجريمة ، والضحايا المنهمكون في الصمت أو في الحوار
المستديم مع النفس . لم أكن أفكر في أية مشاعر بطولية ، وكانت الاجساد
التي تجاورني تخضني الآن أكثر من أي وقت مضى ، ربما يمثل احمد
العبدالله لتاريخ أجداده في الموت البطولي ، ربما يكون اللحظة أكثر مني على
معانية فعل القتل ، بيد أن الجذود الثلاثة يتعرفون الآن على ادق تفاصيلي ،
لقد وحدنا الموت في هذا الزمن الذي لا نستطيع قياسه ، كنا نرتجف ،
وانخلعت قلوبنا من داخل صدورنا ، لكن اقدامنا كانت على الارض ، ورؤوسنا
تمتد نحو السماء ، وتلك هي الخصلة الحميدة في هذا الموت الذي نحياه الآن ،
اننا نتساوى في حضرته ونستطيع التخابط معه بلغة لا يفهمها الغزاة

والقتلة ، بل انني في تلك اللحظة ، وأنا استغرق في الصمت ، اكتشفت عائلة العريف الذي تنازل عن شاراته الثلاث ، كامل عامل طابوق في فتوته ، رأى في الجندية ملاذا أكثر امنا لاطفاله بعد أن يموت أو يتقاعد ، وسمعتة يفكر : « ضاع كل شيء » . أما الجندي ابن التاسعة عشرة ، فقد كان يسودع الآن والحقه ، كانت تقف في بوابة الخربة ، وقد اصطكت اسنانها من الهلع والخوف ، امرأة بالعباءة السوداء ، حافية القدمين ، تمد إليه يدين راعشتين ، بيد أنه لفطر خوفه لم يكن يراها ، كان منغمرا في الاحباط ومقدان الشباب ووداع أجمل لحظات الفتوة ، بينما هبط طائر الموت بكل جبروته على الجنديين الآخرين ، الذين كانا يبتحيان . وهذه هي حالة مدينتنا في الخرائب ، أو في تلك البيرت التي لم نقل لساكنيها ودعا ، فماذا يجب علي أن أفعل الآن ؟ ، ربما كانت مدينتنا النموذج المثالي للقماعة ، وربما - أيضا - النموذج البطولي للموت ، ففي موكب صفر الحزين التقليدي ، تزدهم الشوارع والحواري والبيوت والمساجد ، بأصواء المصابيح النفطية ، وبالتماعات الخناجر والسيوف والبلطات ، والصدور العارية ، وثياب النساء السوداء ، ويقف الضاحكون الى جانب الباكين ، وينتشر الشحافون بطرق ملفقة للنظر حقا ، وربما تتحول الشحاذة الى مائة مكرمة ومائة اجتماعية ما دامت ترتفق بالغفران واذلال النفس ، وعادة فإن المدينة في شهر صفر تستورد ، دون ارادة منها ، أعدادا غفيرة من هؤلاء ، يأتون من مدن وبلدان قريبة وبعيدة ، يفترضون الازبال على الارصفة ، أو يتكدسون على الشاطيء الشرقي للنهر ، دون أن يجراوا على الذهاب الى الضفة الغربية ، حيث يقع ضريح الم ، الا في الموكب التقليدي . وكان هذا التجمع الغريب لا يثير أية سخرية لدى وليد الاحمد ، كان ينظر اليهم ويقول متألما : سيعرف هؤلاء ذات يوم معنى اغلالهم غير المنظورة . ولكن اذا كان هؤلاء الغرباء يمدون أيديهم ويطلبون قطع نقد صغيرة أو هدايا عينية ، ولا يتورعون عن تناول فضلات الطعام ، فإن جمهور مدينة « لام » الوطني ، من الاسر الموسرة وذوي الدخل المحدود أو ذوي العوز والفقراء ، يمدون أيديهم بطريقة مختلفة : انهم يشعرون بالعوز ، في شهر صفر بالذات ، فيتجولون في الازقة والشوارع ، من حارة الى حارة ، حتى ساعة متأخرة من الليل ، طيلة الاحتفال السنوي الذي يستمر عشرة أيام ، ويكون ويستعيدون أحداث غزوات سابقة ، يروون حكايات غريبة وخرافية ، ويجلس الغني لصق الفقير يستمعون الى محدثي السيرة . حتى رجال دائرة الاستعلامات الوطنية يظهرون في هذه المناسبة ، فيرتدون المعاطف الطويلة ، حيث الاسلحة تخفى بعناية ، وينسايون بين صفوف البكاء والندب والوعول ولطم الصدور ، لكنهم يظلون في حدود مهمتهم الاولى والاخيرة : الاغتيال المتواصل لكل مواطن وشحاذ وغريب . وفي آخر الليل ، عندما يعودون الى

مركز عملهم ، المحاط بالغموض والالغاز والحراسة المشددة ، يهرعون الى الاصابير ويدونون بدقة ودراية بالغتين ، كل ما لاحظوه وسمعوه ، لتقوم مجموعة ثانية فيما بعد ، بتقديم ملخص كامل بالمعاومات اليومية ، الى المسؤول الاول في الدائرة ، الذي لم يره أي من مواطني المدينة ، فيكتفي بمعاينتها في الغالب ، أو يهمل ملاحظات قصيرة على صفحات منه . ان دائرة الاستعلامات الوطنية ، في شهر صفر من كل سنة ، لا تعرف مقدما ماذا سيحدث . ورغم ان رئيسها المتكتم على شخصه شغوف بنظرية الاحتمالات ، يفاجأ جميع العاملين فيها بازدياد وكثرة الشحاذين عن السنة السابقة ، في حين يمتد بحر الصراخ والعياط والعويل والبكاء والطم والندب والاضواء والشحاذين والامتزاج النفسي بين الامراء ، طيلة الايام العشرة ، وبعد ذلك تعود المدينة الى هيوئها التقليدي ومراسيمها الحياتية اليومية .

وكنت لا اعلم هذه المناسبة الا في صياغتها النفسية المعلنة ، فاقول اوليد الاحمد : تستطيع ان تتكلم عن تغيير نمط عيش أبناء هذه المدينة . ان الكلام سهل ومريح . انت تريد العودة الى الحقيقة الاولى لانسان مدينة (لام) : العدالة ضمن المشاعية ، بيد اني ارى ان لا فائدة ، فان بناء القرون الطويلة ، وسير الدهر المتصل ، لا يمكن أن يتيح التغيير الذي تنشده بمراسيم اشتراعية . ان المدينة تكتشف سجنها الآن ، في هذا الطقس عندما تمارسه ، باعتباره صياغة جديدة للحرية . اننا غالبا ما نلجأ الى الماضي لانه التعويض الممكن عن الحرية المفقودة في الوقت الحاضر ، وانا لا أستطيع أن أتحدث عن الحرية دون أن أتذكر السجن أو اقترب منه ، وربما يستطيع والدك تقديم تفسير آخر فيقول : هذه فلسفة أرضية ، تكونت بفعل العوامل الارضية ذاتها ، لان الخطأ والصواب ليسا نتاج المجتمع الطبقي وحده ، وسيظل وليد يحلم بمساواة أرضية غير مؤكدة ان لم أقل انها وهم ، وكما ترى فان في ما يقوله ابوك شيء من الصحة ، ومن يحري ، فلعلنا في هذا الطقس السنوي نكون بين الحرية والسجن ، دون القدرة على معرفة الاختيار الضروري .

غير ان وليد يحاول ان يعلمني بانني خالم : انت كاتب تستطيع احداث تراصف جميل بين كلمة وأخرى ، مثلما يستطيع رسام ماهر ان يوجد علاقة من حسن جوار بين لون ولون ليكتمل بعد ذلك شيء تسمونه اللوحة الفنية ، ليست هذه هي افكاري بالضرورة ، ولكن الامثلة قد تكون نافعة ، ان المدينة أية مدينة ، كما هي حال مدينتنا ، حيوان أرضي افتقد البراءة . وهذا امر يحدث خارجك رغم اتصاله بك في أكثر من وشيجة ظاهرة ومستورة ، فكل شيء يكبر سيكون على حساب شيء عداه ، والمدينة مؤسسة تضم عدة مؤسسات تبدأ بالفرد والعائلة وتنتهي بالدولة ، وباستمرار ، هناك صراع بين هذه المؤسسات ، ونمو عمودي واقفي في مرافقها ، والحقيقة تكون مرادفة لهذا

النمو الذي يميل الى الانقسام والتبلور ، حتى يصل صيغته كما نراه في مدينتنا ، ان الجذر الاول للعلاقات خلقه الصراع ، وانت - وكذلك أنا - لا نستطيع نكران هذه الحقيقة ، وإذا ما تطور هذا الشكل الاولى للعلاقات ، فانه سيفرخ أدواته التي انتهت الى الدائرة الوطنية للاستعلامات . هذه هي قصة الممن ، نمو وموت ، وحبل متواصل ، والحقيقة ذات وجهين .

ورأيت وجهه في نصف القمر الباهت ، فقد ابتعدنا عن مجموعات بشرية جاء تراكضة من أحد أطراف المدينة ، يصاحبها عويل وزعيق وضربات صنوج ، حتى اذا ما انتهينا الى ساحة ثرابية كانت كانت منعرجاتها تخلق بركا من أضواء صفراء باهتة وسوداء كامدة ، استدار نحوي وقال بحدة : الخلاص في تحطيم المجتمع الطبقي . ألا تعرف ما أريد ، أن الله - اذا كان عادلا حقا - سيقف معي فيما أريده . وافكرت مع نفسي وتسألت : ماذا يريد هذا النبي الارضي الصغير ؟ غير أنه تراجع في الحال عن حديثه وقال لي : مشكلتي أنني مهووس بالحرية .

ولا أدري لماذا تصورته - في تلك اللحظة ذاتها - يقرأ في كتاب مفتوح . ان ما تحدث به منطقي ، بل جميل حقا ، بيد أنني عجبت له كيف يفكر بتلك الطريقة وهو الذي جاء من صلب عائلة (الم) . ان بيت والده من أكبر بيوت المدينة ، وكلمته تسمع حتى في أروقة ودهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية . لقد عاش بيسر ورفاهية على خلافي وخلاف أقرانه . ثم اتاحت له تلك الفرصة التي ما كانت تتم الا بواسطة الموافقة الكاملة لكبار المسؤولين في دائرة الاستعلامات الوطنية : مغادرة مدينة لام الى الخارج . قالوا : ذهب يطلب العلم . وقال والده : يكون الله في عون وليد .. ذهب ليعود لنا بالخير والطمانينة ، غير أنه عندما عاد ، بعد خمس سنوات ، لم يوافق على العمل في أية وظيفة . لقد رفض أن يكون حاكم البنك الوحيد في المدينة ، واستنكف أن يرى نفسه وسط مجموعة من أبناء الاسر الغنية في ثكنة المدينة . ومع ذلك كنت أحس به ميلا للعمل ، وأخبرني ذات يوم : قد أوافق اذا ما عرضوا على تدريس مادة التاريخ في المدرسة الدينية العليا ، ثم عاد وأكد : مادة التاريخ فقط . ومع التدريس ابتدأت مشكلته مع دائرة الاستعلامات الوطنية ، فقد كان يقول لطلابه : ليس هذا تاريخنا ، انه تاريخ الجباة وكبار القضاة والعسس وأصحاب البريد وأدباء السلاطين وقصف الموالى وموبقات رجال الحكم . وكانت تلك هي المنطقة المحرمة التي لا تتهاون فيها دائرة الاستعلامات الوطنية مطلقا .

وكننت أعجب بهذا الذي يقوله ، وربما وافقته أحيانا ، على أنني في أحيان أخرى كنت أخبره : انت تنتقم من وضعك بأكمله ، ولربما تمتلك ذخيرة كبيرة من اضرار العداوة لابيک . ان ما تقوله ينطوي على نزعة تدميرية

هائلة . وكان يفرح لما أطرحة عليه ولا يغضب على عكس ما كان يفعل مع الآخرين . كان يقول لي : لا بأس ، أنت متعلم والحوار معك غير مضر ، ثم أنك ستجد نفسك الى جانبي وفي خطي ، فهم سيجبرونك على ذلك . وبعد سنوات ، عندما أخذ يحاور بأرائه علنا ، عرفت أنه عول علي كثيرا ، فقد عمل مع عقله على تجنيدي في خلتيه الاولى .

قال لي بطريقته الهادئة التي لم تكن تفارقه : أرجو أن تلتقاني في كوخنا ، عند شريعة النهر . وعندما نقرت على الباب وذاث الكوخ توقفت مندهشا امام سالمة وشخص بلباس الجندي ، بينما كان وليد الاحمد يقتعد حصيرا من سعف النخيل . ابتسم في وجهي وتاملني كما لو كان يلتقني بداية الاسرار ، وقال : كل عمل يبدأ بسيطا ليكون مركبا فيما بعد ، محمد ابتدا فردا ، واختار خديجة ثم عليا ، ونظر الى سالمة ، فردت نظره هادئة مستريحة ، بعينين نجلاوين ، على أنني فهمت اشارته في الحال .

كان بين يديه كتاب مغلف بجاد أسود : لا قانون ثابت لدينا ، لدينا الحياة وانجازاتها . ثم تراجع الى الخلف وأسند ظهره الى جدار الكوخ ، فرايته وسيما ، كانت ملابسه أنيقة وبسيطة ، وأصابع كفيه ناعمة بيضاء وطوية ، وأظافره قصت بذوق وبردت بعناية ، وكان شعر رأسه يتخلل ناعما على جبهة ضيقة ، تليها عيان سوداوان ، وفم صغير دقيق الشفتين ، وذقن مدببة . وكان في مجلسه أمامي يبدو مثل صقر ارتاح بعد طيران طويل وما يزال يبحث عن طريقته .. قال :

— تنقلب المعادلة

قلت :

— أية معادلة ؟

— معادلة هذه المدينة الناقصة .

كانت سالمة ترمقه بنظرات متفحصة بين آونة وأخرى دون أن تنتفوه بكامة ، رغم أنها اتخذت هيئة التلميذ المطيع . بينما كان الجندي يبدو أقرب الى الضيق منه الى المشاركة ، ربما لانه استغرب وجودي بينهم . استمر وليد يقول :

— الحقيقة في هذه المدينة مقلوبة على رأسها .

فعلق الجندي متحمسا :

— وسنعيد لها لتقف على رجليها الى الابد

تضابقت من تعليق الجندي ولم أبد ما يدل على ضيقي ، فعاد وليد الى الحديث مؤكدا :

— هذا عين الصواب ولكن كيف ؟

مد الجندي رقبته الطويلة نحو وليد ، وبنفس الحماسة تسأل :

— نعم .. ما العمل ؟

ومنذ الآن شطبت على الجندي . ولاحظت بأن وليد الاحمد يداري غضبا مخزونا في سره ، فما هو يريد أن يطلعني على خيرة من اصطفاهم ليفاجأ بهذا الجندي المتحمس ، فأكد مرة ثانية :

— الحماسية جيدة .. ولكن من الضروري تهذيبها .

ارتحت في سري لما قاله ، على الأقل لأنه لجم الجندي بأسلوب رقيق لا يخلو من العنف ، لكن الجندي الذي رأى عيني وليد تلومانه ، ارتج عليه الامر . وفكرت ، ان امعاه الآن تتوى في داخله ، ثم أردت أن أقول كلاما لا قطع الصمت الذي ساد برهة ، غير أنني عدلت في الحال ، بينما ظل وليد يرى الى سالمة ، وكأنه يستعجلها في الكلام .

رفعت اليه عيني نجلولين وقالت كأنها تتحدى شيئا سريا ما يزال يطويه وليد الاحمد في مكان ما من عقله :

— نعم ، ما العمل ؟ لنبدأ بأنفسنا .. أنفسنا نحن .. طريقنا فيما أرى ، هو طريق الانقلاب على النفس .

وسكتت فجأة ، ونظرت الي ، ثم انتبهت الى ما سيقوله وليد الاحمد ، وكأنها كانت تعرف مسبقا ماذا سيقول . ومن انطبق شفثيه بتلك القوة عرفت أنه لم يرتح كثيرا لما قالته سالمة ، فقد كانت في هذه النقطة بالذات تتقاطع مع الخيوط الجوهرية في كل أفكاره . ثم انها ، مع ابتسامة خفيفة ، استطردت :

— لا شك ان وليد يوافقني في أن مدينتنا مقسمة ومجزأة . والسبب الجوهري في هذا كله يعود الى ابتعادها عن قيم جددها الكبير (السم) . ولا أشك أيضا في أن كل واحد منا هو مدينة لام مصفرة . ومتى ما ابتدأنا في فحص النفس ، ووضعنا أصابعنا على مواطن الخلل فيها ، استطعنا أن نتقدم خطوة أولية على طريق تحرير المدينة وتوحيد أهلها .

غير أن الجندي قاطعها متهورا :

— هذا كلام مثالي

نظر اليه وليد الاحمد شزرا . وكدت أراه يقدم اليه ويأمره بترك المكان ، لكنه نثر علائم البشر على تقاطيع وجهه وأرعى ذراعيه ، وتحدث بصوت خافت كأنما كان يؤكد أفكاره لنفسه :

— هناك بعض وجاعة في رأي سالمة ، فالنفس ، ربما ، تعبير تجريدي . لا ، ليست مثالية ، هناك الموضوعي ، أولا وقبل كل شيء ، وكما يؤكدده التحقق للمادي في الكون والمجتمع ، ثم يأتي بعد ذلك دور الذات . أنا أفرق بين الذات والنفس . الذات هي بداية الطريق الى الموضوعي ، اما النفس فهناك من يقول عنها انها لواقمة .

وحدج سالمة بنظرة خاصة وقال :

— قد يكون هذا صحيحا من وجهة نظر أخرى ، لكن السوء يوجد في هذا الانقسام الاجتماعي . لا بد أن نعرف هذا جيدا . أن نفس سالمة خيرة جدا ، ذلك لا داعي للانقلاب عليها، ثم أن الضباط ليسوا هم الجنود.

رأيت الجندي يبتسم . بينما بقيت سالمة تنظر اليه في ابتسامة محايدة . كانت تعرف أفكاره مقدما ، وكان باهكانها أن تقول شيئا مضافا . وفعلت قالت :

— الانقسام الاجتماعي موجود في مدينتنا . وأنا لا أنكر الموضوعي ولا أغلب الذاتي عليه . انني بدقة أقول : أن تكوين مدينة لام تكوين تاريخي متميز ، انها تمتد من هنا حتى الكوفة والحجاز وسورية ومصر وتطوان .. وهذه المدن متشابهة في كثير من نواحي الازلال والعسف والاضطهاد ، انها تواجه بالامحال الحضاري ، لذلك يبدو من الضروري ربط الانقسام الاجتماعي فيها بشيء آخر ، ربما أسميه : الصياغات المتناظرة بين لام وبقية المدن الشبيهة بها .

سكتت فجأة ، كما ابتدأت فجأة ، وتغضن وجه الجندي ، في حين كنت مأخوذا بطلاقتها ، لقد عبرت بعفوية ودقة عما كنت أريد قوله ، وكان وليد الاحمد يراقبها الآن كما لو أنه سيعلم بعد قليل خلافة معها ، غير أنها ، وهي تنظر البنا جميعا بحياء ، عرفت أنها قطعت آخر الخيوط بينها وبين ملكة ، وقلت في ذاتي : ما هي سالمة تضع حدا فاصلا بين طفولتها وصباها في ذلك البيت الذي لا تطفأ أنواره حتى الصباح ، انها تتفاعم مع وليد الاحمد بصيغة الاختلاف معه . لقد عاشت مع ملكة فترة طفولتها ، ولم يقل أحد انها ابنتها ، وعندما جاء بها أحمد العبد الله الى بيته كانت تعيش مع وليد الاحمد في البيت ذاته غير أنه من المستحيل كتمان مشاعر العاطفة ، ولم أكن لاشك في أن وليد الاحمد معجب بها .

وكانت تتفحصني في تلك الآونة . لقد ركزت على وجهها جميلا مصنوعا بعناية فائقة ، كانت ترتدي ثوبا واحدا وتحيط رقبتها بسلسلة فضية ، وكان صدرها عاجيا ويكاد يلمع في ضوء الكوخ الخافت ، وعقست شعرها في ضفيرة واحدة الى الخاف ، وكانت هناك حمرة خفيفة تشوب خديها ، ربما كان هذا بفعل خلجها أو احتدامها المستديم ، أو لانهما شعرت بأنني أتملاها بالطريقة التي تروقني ، ولم يكن الجندي يدري الذي يدور في قلبي ، كما أن وايد الاحمد غرق في تأملاته ، فخاطبت روحي مفكرا : « هل أنا أحب سالمة ؟ » وكان الرجل يجيب على أفكاري كما لو أنه عرف سؤالي في الحال ، كانت رائحة ما ، تشبه رائحة النوشادر والغفن تفوح منه ، وثمة مناطق حمراء عند

الرقبة ، قرب الابططين ، وفي مآقي العينين ، وكان وجهه المغطى بغلاف شفاف يشبه الزجاج الا أنه معتم قليلا أو مضرب ، يظهر عيفين مدورتين واسعتين ، وفما كبير الشفتين مرطبتين ، وانفا بعد الحاجبين المحلوقين ، ليعلو قليلا قليلا ، وينتصب مثل خوخة تالفة فوق شفته العليا التي كانت ملساء أو محروقة .

كان متوسط الطول ، يغطي جسده بملابس شبيهة بالمطاط .. كان لا يتكلم ، مع ان نظراته تطلق أوامر لا تراجع فيها ، وكان الرشاش الاوتوماتيكي معلقا بكتفه بحزام جلدي ، وكفه اليسرى تقبض على سبطانة سلاحه ، وسبابة كفه اليمنى تلامس الزناد .

قالت عينا : ارتصفوا

ارتصفنا . وقف أحمد العبد الله قبل الشاب ذي التاسعة عشرة ، فأمرته عينا الرجل أن يقف بين الجنديين ، وذهبت أنا الى الجانب الايسر ، الجانب الاخير ، ووقف العريف في مقدمة الصف يرتجف .

ولاحظت ارتجافا في شفة الرجل السفلى . كان يقف على مسافة خمسة امتار منا ، في نقطة تماس نصفي الصف ، ومن هذا البعد حاولت أن أدقق فيه ، فرأيت شعرا أسود قرب أذنيه ، كان شعرا قصيرا مسترسلا ولامعا . ولم تكن نعلم متى يضغط على الزناد وينتهي كل شيء .

رباغتني بنظرة من عينيه ، فابتعدت الى اليسار حتى لامست الجدار الايسر ، ثم أرسل نظراته الى بقية من في الصف ، فتحرك أحمد العبد الله باتجاه الجدار الايمن . كنا متقابلين ، وكان بإمكانني أن أرى اللحظة جريده سعف النخيل ، قرب قدمي ، وقد فقدت حيويتها في أن تكون سلاحا أو منشأة لذباب ، ملهمة حد المبالغة ، لكنها وضعتني أمام ذلك الحضور الوبيل الذي لا يمكن أن يستشعره الا من يساق الى الاعدام ويقتل في الحال ، اليأس من النجدة ، وانتظار الآتي بصيغة القبول به . وتهيا لي اني سمعت الجرس في داخلي يرد . ان هذه اللحظة وحدها تكفيني لادراك الصدع الذي يحيط عالمي . انني رجل أكاد أفقد العداوة ، وكان شعوري بالاخوة هو الخيط الذي يربطني بالدين حولي قبل ان أصل هذا المكان ، غير أنني كنت على وفاق مع نفسي حتى عندما أصبح بعد لحظات وجودا نافلا بدون قبر ، وهذا هو الذي اكسبني قدرة فحص ياسي : ان الاموات يتحدثون ، ان الجسد اكبر من أن تغادره خصائصه بعد رشه الاطلاقات ، وان بعض الزهور لتستحيي من الشمس احيانا ، لكن عودة أحزمة الضوء إليها ترفع عنها نقاب الحزن ، فامتثلت الى قدرتي في أنني سأقبل الموت لانه لا خيار لي في الحياة ، في هذه اللحظة ، الا ان أموت . وللتو برقت في ذهني هذه الالامحة : ان الموت انطفاء مؤقت . انه الإحالة الثانية للحياة البشرية الارضية في صورة غير بشرية ولا أرضية ،

انه النوم المؤكد في حالة من الحام الدائم ، لذلك أيقنت ان أحمد العبدالله يجرب الآن مرونة اعضائه في تقبل الحياة الجديدة ، وشعرت أنني اقترب منه أكثر من أي وقت مضى .

كان أحمد العبدالله بقامته المديدة التي تنشي عن ثوب مخرق ، في غياب عن هذا المشهد الذي لا يعنيه ، واقفا وظهره إلى الحائط ، مسبلا ذراعيه عن هواء وراحة بال ، الا لعمان في عينيه يصل درجة الاتقاد ، ولأنني داومت النظر إلى تلك العينين المتقدتين سمعته يقول لي مفكرا : هذه اللحظة ، كم سيكون شقاؤنا قاسيا اذا لم نعرها اهتمامنا .

قلت : انت تتحدث عن قضية . تعرف المدينة وببيت ملكة ، واحلام وليد وغموض سالمة ، أما أنا فقد كنت مراقبا ، والآن أنا مراقب ، وبعد الآن ماذا سيبقى لي ؟ . « لا شيء » أدركت ذلك من نظرة خاطفة أرسلها نحوي الرجل المسلح ، في حين كانت جريدة سعف النخيل ، مطروحة فوق أرض الخربة المغطاة بالطين وروث الحيوانات، ثم نظرت الى أحمد العبدالله فوجدته يصلي ، أو يمارس رسما قريبا من أن يكون صلاة : كان يستدعي آباءه الاولين ، آباءه الذين تحولوا الى طين وهواء وماء وأصوات سرية في سوارت مياه النهر ورطب في عذوق الدخل ، آباءه الذين نهضوا من الصحراء في ليلة مقمرة ، وخافوا مضاربهم في ذلك الاوقيانوس الرملي ، وجاءوا الى هذه المدينة وبنوها طابوقة فوق طابوقة ، وهو يراهم يقبلون على خيولهم المطهمة ، يرفعون الغداير ، وينحزنون على أعراف الجياد التي أضناها لفتح الرمل ، ثم يتوقفون قرب النهر بكامل ركبهم ، ويقف كبيرهم ، دون أن يرى نجمة الصباح ، فقد كان (الم) كفيفا ، فيرفع يديه الى الأعلى وينادي : باسمك اللهم ، ثم يخز ساجدا على الأرض . وكان أحمد العبدالله ينظر الى الأرض الآن ، وجسده يتموج خفيفا هادئا ، كجسد حية أسطورية تنهض من سبات دهرى ، تتخلله رفسات صغيرة من أدق مكان في أظهر ابهامه حتى أدق شعرة في رموش عينيه . صلاة : الحياة اذ تبدأ تتكون . صلاة : الحياة اذ تقبل الانطفاء وتعاود الانطفاء . صلاة : الاستغراق في هذا اليأس الكامل دون أن تكون قادرا على التقاط شهقة قصيرة ، ولكنه التشبث في تلك اللحظة بكونها حياة لا ترتضي القسر . صلاة : كنظرته الى ملكة حين كانت غرغرتها الاخيرة ، الاعلان الأكثر تأكيداً على طبي قيديها في السجلات الرسمية .. كانت ممددة على سرير حديدي ، ظهر الصدا على قوائمه وحافاته ، فوق حشوة قطنية منخسفة في كثير من مواضعها ، توسد رأسها وسادة متسخة التصق عليها شعرها المفلل ، وكانت عينها متجهتين الى سقف الغرفة الاجرد الا من نتوءات بارزة هي بقايا جذع نخلة شطر الى أربعة أشطر ، وكالعادة كان البيت مضاء الا أنه خال تماما من الصخب والضجيج السابق . وعندما دلفت في

الدرابزون الذي يؤدي الى غرفتها شاهدهت احمد العبد الله يجلس قريبا من راسها ويقطر لها ماء بمعلقة شاي صغيرة ، كان جسده يرتعش ، وكنت أفكر أنه يرى صوته ، وكانت ملكة منفوخة البطن ، وبان ثدياها من تحت شداسنتها مثل بطيختين حائلتين ولا تستطيع ان تقول كلاما مفهوما ، انها تهمهم وتلغو ، وكان لسانها يلوب بطيئا داخل فمها المتيبس الشفتين ، وحاولت ازاء نظرات احمد العبدالله ، بعينين تغالبان الدمع ، أن ترفع احد ذراعيها فلم تستطع ، واكتفت برفع سبابة كنها اليمنى قليلا الى الأعلى ، فأشارت الى السقف الاجرد ، ثم عادت السبابة الى وضعها الاول المرتخي بارتجافة واضحة ، نظر احمد العبدالله الى الاعلى فلم يجد الا السقف الاجرد فوق رأسه ، وفي أحد اركانها ثمة « أبو بريص » يخرج لسانه الرفيع خارج فمه بسرعة ، وينظر بعينين محتقنتين الى ذبابة منزل كبيرة في وضع التجمد ، بانث ابتسامه مرهقة على فمه ، وظرت عليه سمات الانشراح حتى خلت انه سيطلق صوتا ضاحا ، لكن « ملكة » لم تترك لنا فرصة تبادل حديث سريع لانكسر الصمت الذي يحيطنا ، فقد رفعت رأسها عن الوسادة قليلا ، فبان اصفرار وجهها في ضوء المصباح الشاحب ، مثل برتقالة تالفة ومتروكة ، كان ينز ماء ، على شكل بلورات دقيقة عند الانفا والجبهة ، ثم اندفع سيل من ماء أسود من داخل جوفها الى خارج فمها . كان كثيفا كالديس ، فسال على جانبي فمها واستقر قسم منه على الوسادة الزرقاء المتسخة ببقع حمراء وسوداء وصفراء ، وعادت تنظر الى السقف ، حيث أبو ابريص تمكن الآن من القبض على الذبابة المنزلية الكبيرة ، وكأنها تريد ان تقول شيئا ما ، وعند ذلك أدنى احمد العبدالله أذنيه من فمها . كانت تحرك شفتين مصبوغتين بقيء أسود كثيف ، وكان وجه احمد العبدالله يبدو محتقنا في تلك اللحظة ، حتى انني تصورته سيعيط بأعلى صوته ، غير انه قال بصوت خافت : انا الآثم يا ملكة ، ثم رفع رأسه الي فشاهدهت عينيهِ مغرورقتين بالدمع وقال : ماتت .

كنت بين مصدق ومكذب ، فقد كانت عيناها مفتوحتين ، وفمها مفتوحا ، ولسانها يكاد يبرز من شفتيها الملطختين بالقيء الاسود ، وفي السقف كان أبو بريص يبتلع الذبابة المنزلية الكبيرة . واكتشفت انني وأحمد العبدالله وحيدان مع ملكة التي كانت كالنائمة تماما وهذا الصمت الذي سينطق بقوته وجبروته .

لم أكن أصحق الذي جرى ، فقد كنت أؤكد لوليد الاحمد أن ملكة لن تموت . صحيح انها في السنوات الثلاث الاخيرة هجرت من كل فتياتها ، لكنها كانت تبدو سعيدة . فلم تترك زينتها يوما واحدا ، واستمرت تجلس عند دكة باب بيتها المضاء باستمرار ساعات طويلة في كل مساء ترقب المارة ،

وتقلبي يرسم خطوط ودوائر بعصاهما الخيزران على التراب ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بيد أن مرورا عابرا لآحمد العبد الله من أمامها كان يجعلها أكثر سعادة . انها تستوقفه أحيانا ، فيجلس قريبا منها ، فوق الأرض المتربة ، ويطيل الانصات اليها ، وكان صوتها من الضعف والوهن بحيث يجعل آحمد العبدالله يذو منها كثيرا . وفي احدى جلساته عندها لم يسمعها صوتها كثيرا فدنا منها آحمد العبدالله حتى كادا ينتشباكان ، واذا ذلك رمت برأسها على كتفه وطفقت تنسج ، وسمعها احد المارة تقول : كل شيء قبض الريح .

وعندما غادرت مهجعها ، لم يبق معها الا آحمد العبدالله والصمت وأبو بريص ، بينما تلتفتني ريح حارة في الازقة التي هومت فيها . وتذكرت ما قاله وايد الآحمد : هذه هي القاعدة : نولد لننمو ونكبر ثم نهرم ونموت . وشعرت بالتقزز من هذه الفكرة ، فقلت لوليد الآحمد : انت .. انت تقول هذه البشاعة ، ولم أقل له ان عدونا الوحيد هو الزمن ، وانه يختار لحظته ، كما يجدرها بعيدا عنا ، ثم ينهمر بكل ثقاه وجبروته على كل شيء . وكان الرصاص في الخبرة ينهمر علينا من كل الجهات . كان الرجل المسلح بمسك مدفعه الرشاش بيده اليمنى ، ويرسم دوائر في الهواء ، ولم نكن لنعرف في أي جسد ستستقر احدى رصاصاته ، انه يرفع المدفع الصغير الاسود المدهون حتى ليلتمع ، الى الاعلى ، ويردد صرنا مبهما : « هذا قدركم » لم يكن صوتا بمعنى المهمة ، بل شيئا لا يمكن وصفه ، فهو بعد أن رنق عينيه أطلق تلك الأصوات . هل كان يترنم ؟ ، انه بالتأكيد يحيا أوج عاطفته ، في هذا الموت البطيء الذي يزحف ابتداء منه وانتهاء بنا . لقد كان يقول شيئا ما ، أشبه بتقارير موت لمن لا نراهم ، صوت كصوت من يستغرق في حالة تعبد ، مثل صوت الذي يتهدج ، مقرورا ، ترعا ، بهذا الاختفاء الكامل للحياة في حركة صغيرة ، ليست عابرة ، لكنها التعبير عن الموت ، أو الموت في حركة . ولذلك فانه كان يتموج ، خفيفا وهادئا ، عندما وجه ماسورة المدفع الرشاش ، بدءا من الحيطان الى الاعلى ، الى الاسفل ، وكنت أتنفس بصعوبة ، وأتحسس جفائا في لهاتي وحلقي ، وكان لسانني مثل عظمة مهملة ، جافة وصلدة ومصعوقة .

وتوقف انهمار الرصاص ، أصبحت جسدي مسندا الى الجدار الايسر ، متشنجا ومتصلبا ، ذراعي على يمين ويسار الجدار ، وكان آحمد العبدالله مصابا في يده اليمنى ، بيد أنه لبث في وقفته ، بينما برك العريف على ركبتيه متاوما ، وكان الجنديان جثتين هامدتين . أما الجندي ذو التاسعة عشرة فتقدم نحو الرجل المسلح صارخا : « من انت .. من انت ؟ » كان صوته فثيا وملتاغا ، خالطته الهبة ، ونظراته مثبتة في ماسورة المدفع الرشاش ، بينما كان الرجل المسلح ينظر اليه دون اكرثاث ، ويتحرك خفيفا وهادئا مثل حية

أسطورية استيقظت للتو من سباتها الشتوي ، وصرخ الجندي الشاب مرة أخرى : « من أدت ؟ » . وفي عينيه المفتوحتين حد البأس والرعب ، كانت صورتني واضحة : آخر امارات الانكرا ب والخوف والبأس .

تراخت ذراع الرجل المسلح اليمنى ، وجسده الصغير الممتليء ، استوى الآن مثل فقاعة بيضاء ضخمة ، وركل رأس الجندي الشاب واستدار الى الخلف بعد أن نظر الي والى أحمد العبدالله فتيقنت أنه قال لنا « انتما متما أيضا »

فرض الموت حضوره الوبيل ، ليس لان الجثث الاربع حاضرة بما في الموت ذاته من انهمار وصمت ، بل لان الدخان كان يغطي في جو الخربة ، واصوات الاطلاقات النارية ما تزال تصل من الخرائب المجاورة ، والصوت الرقيق الناعم والحقيق حد القتل يامر : استسلموا . ولم أكن سعيدا في عدم موتي ، كما أنذني كنت مندهشا من كل هذا الذي حدث .

حسبت الامر مفارقة ، أو حاما كابوسيا ، غير أن الفجيعة كانت تعيد تركيب معنى المفارقة بشكل آخر ، والاحلام ، حتى الكوابيس منها ، كانت ممنوعة في هذا المكان ثم لاحظت جسد أحمد العبدالله يتراخي ليجلس على الارض ، ويلتقط جريدة سعف النخيل ويقبض عليها بيده اليمنى . « ماذا يريد ؟ » ولم أكن بحاجة الى أية اجابة ، فقد كان أمامي يشدد من قبضته على السعفة المجرودة ، ثم قالت لي نظراته « باقت الحياة زائدة بعد فراق الوجوه الذي الفناها » ، ولم يكن وليد الاحمد معنا ، فقد وضعه رجال الاستعلامات الوطنية في مكان مجهول . وحدها سالمة ، كانت تستكين في تلك اللحظة . ورايت عينيهما تطلان علي من سماوة الخربة ، كانت حزينة ودامية بدشداشتها الحمراء المشدودة على جسدها الناحل الفتى . وشعر رأسها يتطاير في الريح ، لم تكن تتكلم ، كانت تنظر الى أحمد العبدالله دون أية اشارة ، وتبادلني نظرات غاضبة . وسمعت أحمد العبدالله يقول بصوت خافت « يا ربي .. يا رب القتلة » . وقلت لنفسي : قد يبرر القتل ، ولكن أية جريمة أشد اجراما من القتل ذاته سيكون التبرير ؟ ويقول وليد الاحمد ، ينبغي أن لا تستغرب ، أرجع الاسود الى جذورها ، أو جذرها الواقعي ، وسأرى أنك تستطيع النظر الى الاشياء بصورة صحيحة ، أو أنك ستراها كما ترى وجهك في مرآة صافية ، على أنني ، كنت وما أزال ، أرى أن استجواب القتلة ، وإعادة تأليف تاريخ القتلى ، عملية لا تستجلب الطمانينة . ويقول وليد الاحمد : الطمانينة قريبة الدعة البورجوازية ، وأنك بالاساس لا تمتلك شيئا لتفقد ، ولا أحد يستطيع - حتى لو امتلك فظافة رجال دائرة الاستعلامات الوطنية - أن يصادر أفكارك وانت تتحدث صامتا أو تفكر وانت صامت . ويقول أحمد العبد الله : : الطمانينة هي الرذيلة بعينها ، وتقول سالمة حين

لا تجد بدا من طرح أفكارها بهذه الجدية : الطمانينة الى الماضي مغلوطة ، والمستقبل هو الحاضر في اطار التصور ، وانا أعاين نفسي بهذه الصورة ، ولا بد أن تعرف أننا في الحب وحده نضع أنفسنا في ذروة الطمانينة غير البرجوازية ، ثم نبحث عن الفعل الذي يحمي هذا الحب . كيف نحمي هذا الحب ؟ . والحكاية ملخصة أنني أرى تاريخي ، بكل ما انطوى عليه من قسوة وانهماك في الوحشية ، لأننا في النهاية ، لا نمتلك الا هذه الفضيلة . واعتقد أن مدينة (لام) وحدها هي القادرة ، من بين كل المدن ، على أن تتحدث عن الحب بلغة أكثر صفاء ، وكنت أقول ان الكتابة هي الاختراع المستديم ، والابراء المستمر للذاكرة . وفي ذلك المنعطف الخطير الذي لا يدركه كثير ممن يزاولون احتراف الكتابة ، المنعطف الذي يمثلته أحمد العبدالله في انجذابه السماوي - الارضي ، لا بد للكاتب ان يقول كلمته . وهي كلمة تتضمن الحب ، والكتابة حب حتى عند ما يكون على الروائي أن يفرض كل الدمايل في أكثر الجهات سرية من مناطق مدينته ، ويعيد ترتيب الخارطة الجغرافية النفسية لمدينة مثل مدينتنا المنكوبة ، لانه استجواب القتل وإعادة تأليف تاريخ القتلى ، عمل ينطوي على الحب . لكن قتلى مدينتنا لا يتحدثون ، ولا يوجد من يجزو على استجوابهم . ثم ان أي حديث جاد يكاد يكون محرما ، بعد أن أخذنا اتجاه السجن وصحبنا رئيس عرفاء السجانة بصبحته اليومية التقليدية : « ولد الفقراء .. مساكين .. كلكم سجانة ومساكين » .

.. وماذا يفعل السجين ؟

لا شيء ، وكل شيء ! وكنت أقول : السجين لا يغادر حريته ، ويرفض أي اجراء لاعطائه حياة مجتزأة في الحقيقة التي يدخل فيها بوابة السجن الرئيسية حيث يكون السور خلفه . وقد يوجد الاعتقاد امحاء لاهم ما في الذاكرة من بروزات تقفرون بالماضي ، لكن ثمة تشكلا جديدا لا بد أن يحدث ، وهذا ما كان يفزعني ، خصوصا عندما لاحظت التنميط اليومي لحياة السجن ، وكان علي في اليوم الاول أن أكون ضمن ذلك التنميط : الرياضة الصباحية ، العد التصاعدي ، الكوابيس النهارية ، أوقات تناول الطعام ، العلاقات غير المتكافئة ، التحكم بالآخرين من خلف زواجر السور وأبراج المراقبة . التقارير السرية للعملاء ، أو - وهذا هو الخطير جدا - اكساب السجن صفة المدينة ، وبالنسبة للآخر ، وخارج السجن غالبا . يظل هذا البناء الاصم مصدرا لكثير من الاوهام ، وربما - وهذا ما حدث بعد ذلك - تستقر هذه الاوهام في رؤوس كثيرين ، لذلك لا يبدو شيء من غرابة ، عندما نتناول قدح الشاي المر ، في هدأة الليل وهسيس الصمت ، ثم يأتيك صوت مباحث هذه هي خمرة الثوريين ، أما عندما نريد امتصاص الزمن في قراءة ما اتفق ، فان تطبيقا

مصنوعا مثل : السجن محطة مؤقتة للتثقيف ، قد يكسب وجهك مسحة من سخرية لاذعة ، مع أنه ينطوي على مخاتلة كبيرة ، وإيهام أفضح للذات .

ان تحدي السجين هو الزمن ، أو هكذا خطر لي في السنتين الاوليين ، وكنت أتصور زمني عجينة هائلة ، عجينة من مخاط وقار وطن وأفيون وشذوذ وتمارض وادعاء حب وتفكير مستمر في التخطيط الذهني لجريمة منظمة ، وأنا اتلعبط في طياتها ، دون قدرة على تحديد ماذا يراد مني ، أو ماذا أريد أنا شخصا . وهكذا اذ كنت أتذكر أيام الخرائب بكل قساوتها ، وذلك الخوف الذي سكنتني ، وأنا في تلك الزنزانة الطويلة مع خليط من ضعفاء أو نصف اقرباء ، أتمنى ان أعيد خيط الزمن من جديد ، الى الزوا ، الى الوراء ، حتى اصل الى ذلك الصباح الشتوي ، بين الخرائب في المنطقة الغربية ، لاعلن في وجه احد الغزاة : أيها الجبان .. أقدم ، فتستقر رصاصة عابرة من مدفعه الرشاش تحت ثديي الايسر وأستريح من هذا العناء . غير ان الرصاصة العابرة كانت من البطء الشديد بحيث اني كنت اراها قادمة طيلة تسع سنوات .. دون أن تطال الجزء الايسر من صدري .

وما أزال اعتقد أن ذلك الاحتمال المتوقع للموت ، أو اليأس منه ، لطول المسافة التي تقطعها الرصاصة وكأنها تسير في دائرة كونية لا حدود لها ، هو الذي قدم لي تلك الانتباهة الفريدة ذات يوم : انني أستطيع أن أكون حرا اذا ما أردت حريتي ، حتى ولو كان ذلك في السجن ، بل ان فعل الحرية يكسبني تلك الشراسة في قبول البأس ، وكان أحمد عبدالله يراقبني وأنا أضع قدمي في أول هذه الطريق . الا أنه بعد السنة الخامسة ، لم يعد يهتم لأي سؤال أو جواب من ذلك الخليط النافر من الضعفاء وانصاف الانبياء .

كان يشعل النار فقط ، في مكانه قرب الباب الرئيسي الذي يوصل الى حجرة الادارة ، حيث السور الحجري المتعالي والمتطاوِل ١٠ يطال علي مدينت واسعة من رمال تغير مواقعها باستمرار ، وحيوانات دقيقة تهزم ليل نهار ، فوق رمال تصطلي بالحرارة نهارا ، وتبتدر ليلا ، حتى إنه في النهار المتلطي يديم اشعال النيران بالعاقول والعوسج وقشور الرمان والرقبي والجرائد القديمة وجوارب السجناء المهترئة وملابسهم الداخلية المتروكة ، وغالبا ما كان يشحذ هياج النيران بجريدة سعف النخيل التي لم تغرقه . وفي ذلك الحين انقطعت عنا أخبار المدينة نهائيا . لكننا عرفنا بعد ذلك أن بيوتها ومرافقها قد هدت عن آخرها ، وأجبر الغزاة الاطفال والنساء على الرحيل فورا منها الى أية جهة يشاؤون . وفي وهج النيران رايت أحمد عبدالله يفكر قليلا فعملت أنه قرأ أفكاره . كانت جريدة السعف في يده وقد بان القصر في طولها واضحا وهو يلعب نيرانه . وعندما أدار رأسه نحوي أدركت في الحال أنه يراني ويرى سامية ووليد والنملة البعيدة المتوحدة خلف السور .

- هذه هي الحالة يا سيدي .

أجاب هازا المجردة في وجهي :

- أية حالة تعني ، ثم انني لست سيديك ؟

قلت مترابعا

- مدينة لام اندثرت

قال مبتسما بصوت يشبه البكاء

- مدينة لام لن تندثر ، انها طحلبية

- ماذا تقول ؟

أجاب :

- هرب وليد من مكمنه

ثم عاد الى نيرانه يلاعبها ، وخاطبني بصوت خفيض :

- لم تكن تعرف وليدا جيدا ، انه مثل طحلبية ، يتوزع الامكنة التي

يؤيدها ، او ان الامكنة تدعوه اليها .

- وسالمة ؟

نطقت اسمها دون ارادة مني . فعابني من أسفل قدمي حتى رأسي ، ثم ركز

بصره على أبعد نقطة في سماء تلك الظهيرة الصحراوية وقال :

- كنت أعرف . أنت تحبها .

- نعم .

واستطرد بفرح مفاجي :

- لو تدري ، انها تحبك .

كان ذلك مفاجأة لي . كنت في داخلي أضمر لها عاطفة خاصة ، نعم كنت

أحبها وما أزال كذلك ، ان الامان المطلق يحضر معها اذ القاما في زقاق من

أزقة المدينة ، أو تقف أمام بيت والدها ، اما الآن ، فان الامان الذي تحمله

يخل قلبي كمدينة من يترصدني طوال عمري ثم اذ تنتج له غفلة فرصة ان

يخس المدينة من تحت ابطي الي القاب مباشرة ، يكون فعله القدري قد وضعني

في موقع آخر ، لاقول : ان الشيء المبهم في نفس ذلك الكائن هو الذي دفعه الى

اختيار فعله . ربما كنت افهم دوافع القتل عند كثيرين من القتل . بيد ان تقبل

سالمة لقتلها ، بذاك الطريقة الفذة الانسانية والرائعة ، كانت تنسف كل ما

تعارف عليه أهل مدينة « لام » : لقد دخل الى بيت أحمد العبدالله أحد الغزاة

فوجدما لوحدهما ، وفي الحال انفرد بها في حوش البيت واغتصبها ، ثم خرج

دون ان يقول كلمة . أما سالمة فقد بقيت في مكانها ساعة أو أكثر ، كما عرفت

منها فيما بعد ، تنظر الى السماء ، متكئة الى حائط البيت ، لا تدري ماذا

تقول . غير انها ، عندما كانت السماء تحترق ، خرجت الى شوارع المدينة

ومي تصرخ : الاطفال ، عليكم بالاطفال . وبعد ذلك كنت في حالات من التمزق

عندما أفكر بذلك الطفل الذي يذمو في بطنها دون أن تعرف أياه لكنها تقبله . وكانت تبسط الموضوع كالآتي : لست مذنبه ، ان القتلة مفتصبون بالضرورة ، كما أن الطفل لا علاقة له بكل ذلك الذي جرى ، فكيف اسقطه من رحمي أو أخنقه ؟ لا بد أن أربيه ، هذا هو رأيي . وكان وليد الاحمد لا يطيق حتى الاستماع الى هذه الفكرة ، ولكن لان الذي حدث حدث فعلا ، تصرف وكان شيئا لم يحدث ، وأخذ يعيد تقييم سالمة بطريقة يختلف فيها معها اختلافا تاما . وقطع احمد العبدالله صمتي قائلا :

- سالمة ، ليست ابنتي !

- كيف ؟

- هي من صلب ملكة فقط .

ولا أدري كيف وجدت نفسي أعود الى عدة سنوات ماضية لاكتشفها في لحظة قصيرة جدا فرأيتها في مكان لم أكن أعرفه في سنوات السجن ، تقبل على رافعة ذراعيها بينما السماء تعج بطيور النثم ، غير أن احمد العبدالله تدخل في صمتي مرة أخرى ..

- رأيتها . اليس كذلك ؟

- نعم

- هذا حسن . لو أنك تستمر على تدريب نفسك ، فسقراها معك الى

الابد

- لا أفهم

- بالتأمل

- والطفل ؟

- ماذا ، هل مات ؟

- انه ثمرة ..

- محرمة .. اليس كذلك ؟

- لم أكن أقصد هذا

- إذن ماذا تقصد ؟

- لا شيء ، نعم لا شيء

بقيت انظر الىه ، وقلت في نفسي : انه مع ناره يرانا جميعا ، وليد وسالمة ومدينة لام وما أسماه بمستقبلي المجهول . ثم حرك النار فارتفعت ألسنتها ، ورأيتهم يمد كفيه بين اللهب ويبتسم

- النار .. ألا تحرق جلدك ؟

فقال مغرورق العينين :
 - يا إبراهيم ، ما تزال نصف مبصو ، كل شيء حولك يدعوك الى التمسك والابتعاد ، وحياة متعددة ولغات أكثر تعقدا ، وأنت تسبح في تدوين

حياة هذا السجن .

قلت :

- أكاد أفقد ذاكرتي ، فقلت استعين بالتدوين

تسأل :

- وقلبك ؟

- تبأله

أريد وجهه :

- أياك من الغلط . هنا الغلط وحده ، عندما تقيم فاصلا بين عقلك وقلبك ودون أن يكمل استدوار برأسه نحو سور السجن ، حيث تفرس في نقطة بداية الظل .

كان مبنى السجن مثل انتفاخ هائل ينبعج من أرض شديدة الانخساف ، وكان سوره المربع الذي يحيط بعشر ردهات ، قد كسي بطبقة زلقة من تراب مفخور حد الترابق ، ويبدو من الانخساف الأرضي بشكل نبات الفطر ، ذلك النبات الاملح الذي يميل الى البياض قليلا والمر مثل ثمرة الصبر . ومن الرابية الشمالية التي تبعد عن المبنى قرابة ثلاثين ميلا ، يمكن مشاهدة الدخان الذي يتصاعد من المطبخ مع أول الصباح ، غير أن السجن من الداخل ليس الا أرضا واسعة محاطة بسور مرتفع في حدود خمسة أمتار . وفي ردهاته العشر توزع السجناء أمكنتهم الخاصة : بطانية سوداء ووسادة تبين وملابس وصناديق صغيرة ، وفي كل ردهة يوجد مسؤول يشرف على مسؤولين أصغر منه ، وكان ثمة هيئة غير معروفة العدد تشرف على سير الأمور في داخله يخضع اليها السجناء جميعا . وفي كل يوم كنت أسمع عن تاليف لجنة جديدة ، فهناك لجنة المطبخ ، ولجنة لشراء المواد الغذائية ، و .. للشعر ، ولجنة للحراسة ، وسادسة للمعلومات ، هذا عدا اللجان غير المعلنة التي أسمع عنها الكثير ولم أعرف مهامها ، حتى انني قلت ذات يوم في نفسي : مديفة لام تحولت الى سجن ، ثم تيقنت من ذلك الذي قلته مع نفسي بعد فترة ، فقد جاءني أحد السجناء وانتحى بي جانبا قصيا ثم أسر في أذني :

- لا تقرب : أحمد العبدالله

سألت مستغربا :

- لماذا ؟

- أنه خطر

قلت مفتاظا :

- ولكنك تعرفت صلتي به .. انه ..

قاطعتني فجأة ، ولما لم أكن أعرف ما كان عليه ، قلت له :
هل خيولهم ؟ .. لأننا نكركم جديا في المصلحة السجل ..

سألت :

- وماذا فعل ليعتارض مع مصلحة السجن ؟

- النار !

- وماذا بها ؟ انها ناره

رد وكأنه يريد انتهاء الحديث

- لقد أبلغتك رأي المسؤولين ، وانت أدري بمصلحتك .

وشعرت بالقشعريرة تسري في جميع أوصال بدني ، فلم أكن أرى في نار أحمد العبدالله ما يبعث على القلق ، لقد كان يتلهى بها ، ولم يكن يفكر في حرق السجن . ولم يياس ذلك السجين مني ، فجاء بعد ثلاثة أيام ، وجلسنا في ذات المكان الاول ، وبادرنى قائلا :

- أحمد مريض

- اذن نرسله الى طبيب السجن

- لا

- ولكنه مريض كما تقول

ضحك وضرب بكفه على فخذي فشعرت بالاشمئزاز ، وتابع :

- انه مريض فعلا ، ألا ترى نحول جسده ؟

ضحك مرة أخرى وقال :

- لم يروضه «المستنقع» لثلاث سنوات فهل تعتقد أن طبيبا سيسفيه ؟

والمستنقع سجن مركب ، فهو مكان ما في السجن ، يعزل فيه السجناء من قبل السجناء أنفسهم ، ثم تتخذ صيغ صارمة في التعامل معهم ، فلم أرزاقهم الخاصة ، ولا يقوم بزيارتهم أحد ، ولا تلقى على أحد منهم أية تحية . وغالبا ما تبدأ فكرة المستنقع بسيطة وفردية ثم تتحول تدريجيا الى نظام اخلاقي وسياسي صارم ، وحصة الذي يكون المستنقع مكانه من الكرامة ضئيلة حتى بين زملائه القاطنين معه ، فمواقف الضعف والجبن ، تعاد صياغتها من قبل فريق ذلك المكان ذاته ، يتحول الى عدة مستنقعات . ولأن نزلاء معزولون ، فانهم لا يحضون باحترام حرس السجن . ومن يتجرا على تحية أحد نزلائه ، فان عقوبات فورية توجه اليه . وعندما التقيت وأيد أحمد فيما بعد ، وأخبرته عن حكاية المستنقع بدا عليه التوتر وقال : هذا إجراء احترازي . لم اتفق معه وقلت : ألا يعيد اليك المستنقع الفكرة البسيطة التي قامت عليها دائرة الاستعلامات الوطنية ؟ . تغافل وتصرف كما لو أنه لم يستمع الي ، فقلت بلهجة أكثر حدة : من أنت حتى تصدر قرارا باعدام أحد ؟ فصرخ في متوترا : « ومن قال لهم أن يكونوا ضعفاء ؟ » .

« وليد الاحمد سجين أيضا ، تماما كذلك السجين الذي حفرني من والده . وعندما عدت الى أحمد العبدالله وناره ، كنت أردد مع نفسي « الامن .. ؟ »

اي أمن يريده هذا السجين ؟ ، وكان احمد العبدالله يحميم اشعال ناره دون أن يكثرت بي ، حتى اذا ما دنوت منه هز جريدة السعف في وجهي وصرخ في « انتهت مدينة لام » كنت اعتقد انه ينهر السور ، فقد كان خلفي ، وأنا اعابن اللهب دون أن أفطن الى ما كان يرمي اليه ، لذلك هممت ، هممت فقط ، ونظرت اليه .. كان الفصل صيفا ، والرمال المتحركة خلف السور ، تملن عن حضور ليس بحاجة الى تأكيد ، تنز اذ ترتطم ذراتها بصوت العنف الذي يولده اصطدام حركة الرياح اللولبية السريعة ، فرأيت أمامي رجلا يتحصن بعباءة من الوبر ، يداعب نارا متقدة بجريدة من سعف النخيل وهو يقول « ماتت مدينة لام » . ثم واجهني ولوح في وجهي بالسعفة المجردة زاعقا : « وانت .. ماذا تقول ؟ » .

لو كنت في السنة الاولى ، لاستحضرت جوابا في الحال ، الا ان الزمن كانت له حركة الرمل خارج السور ، حتى اذا ما أمنت النظر اليه - وكان يمر من أمامنا فريق الكورال - لم امتك زمام نفسي واخذت أصرخ في وجهه « يا ابن الم » ان هذا كله هراء .. النار المشتعلة هنا .. النار الموقدة في المطبخ ، والنار التي تحت اوعية الشاي في الردهات .. والحرارة المحفوظة في الترامس .. وذلك الغفء الخبي بين الجلد واللحم ، وكما لو أنني عقلت عتلا الى الايام الاولى لمدينة لام ، وطفولتي ، وذكريات الخرائب ، وسالمة ووليد ، حاولت أن افكر هذا الزمن . كان زمنا خاصا بالسجناء : زمن النهوض المبكر أو المؤجل في الصباح أو المساء ، زمن الصخب والعنف والاعتقادات التي لا تمتثل الى يقين سوى القبول بالذي يحدث داخل السور ، انه زمن المدينة القديمة في اكثر تشويهااتها حدة ، كان زمنا مخالفا : غياب العقل ، غياب الروح ، كان زمنا مخالفا : حضور الجسد في أعلى ذراه التصاقا بالارض ، الجسد المحكوم بالارض ، المنغم في امتثالاته كجسد يتقبل اصفر تشويه ازاء الجمال الذي يوحي به جسد السجين ذاته ، ولكنه الجسد المتعارض مع انفعالاته وصبراته أحيانا ، ثم انه أيضا رغبة الجسد في ان يحيا ويتحرك ، تماما كالرمال المتحركة خارج السور . كان زمنا استثنائيا : انهيار الروح ، انثلام العقل ، ورغبة الجسد في أن يكون سيدا وعبدا .

ولما قلت لنفسني : لأماحك ذاكرتي ، أيقنت أن هذا هراء أيضا . فهذه الذاكرة تكاد تكون نشفت ، فراغ دائم متصل ، وحركات ميكانيكية محضة ، الاعتياد يتحول الى نمط ، والكل يتحركون مربوطين في خيوط سرية الى جهة ما في احدى الردهات العشر ، تماما كما كان يحدث في أواخر أيام مدينتنا ، حين كان الجميع ، بدون استثناء ، يقادون سرا وعلنا بالخيوط السرية ذات البكرة الواحدة الموحدة في احد دهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية ، واذا وجدت نفسي افتح عيني على سعتهما لم أجد الا شمس تموز الحارقة واحمد

العبدالله متحصنا داخل عباته : وجهه الى النار ، يوجرها بالسعفة المجردة ،
والسنتها تطول وتقصر ، ومن حوالها وفي داخلها ، تتحرك الريح رضية ،
كان شيئا ما لا يرين على هذا المعنى المسكون بالاجساد والحركات والصراخ في
احيان كثيرة ..

اقتربت منه فاقترب هو مني دون ان يتحرك ، ولأن لم أر ماذا كان
الجسد داخل العباءة يتضمن من تفاصيل ، سوى أن الوجه بعينه اللتين
كفتا عن أن تطرقا ، والفم المزموم الشفتين ، الشفتين الرفيعتين والفم اللدرد ،
يقذفني الى ايام بعيدة ، لا أملك الآن ناصية الحديث لوصفها ، لأنها كانت
خارج حدود الوصف ، فهي حركة لا تنتمي الى أي قوى ، ولا تقترب لأن
تكون في دائرة الوهم ، حين توقف الصباح عن أن يكون صباحا أو عصرا
أو مساء ، أيام : أمام حبل الاعدام ، طلقة الاعدام ، وقلت له : تساوت الرؤوس
وتشابهت الحيوانات ، وكنت اعتقد أن كلماتي سوف تستفز ، بيد أنه بقي
مصغيا لحديث النيران ، يدير بصره بين حركة والتواءات ذؤابات ، ثم حدث
الحدث الذي ما أزال أخاله جلما : وقف أحمد العبد الله على قدميه ، وبحركة
مباغتة من يديه ارتمت العباءة فوق الأرض . كان عاريا بصدر أعجف وبطن
ضامرة وساقين مزليتين ويدين أكثر هزالا ، وتقدم الى النار حتى صار وسط
اللهب وزق : « أين أنت يا سالمة !! » ، وخر على وجهه بينما كانت النيران
تنمو فوق ظهره وكتفيه .

لم يقترب أحد منا ، كان الجميع يسيرون قريبا من المكان دون أن
يطلقوا نامة صغيرة «مدنية مدينة لام» وأيقنت بما قاله أحمد العبدالله ، عندما
لاحظت ذلك السجين الذي تعود تحذيري من أحمد العبدالله ينظر صوبنا
ساخرا . ولم أمد يدا الى الجسد العاري الذي تنمو عليه النيران ، فقد كان
أحمد العبدالله يبكي لأول مرة وآخر مرة .

لم انس ذلك البكاء . وحتى بعد أن فتحت بوابة السجن الرئيسية
وأخرجنا منها ، لم يغب عني مشهد جسد أحمد العبدالله في ذلك الوضع الرزي .
وكنت ازداد اقتناعا بأنه كان يخاطب الحياة الحقيقية داخل السور وخارجه ،
مثلا أيقنت من وجود زمن في هذا المنفى الذي تحول الى مدينة . على أنني
عندما التقيت سالمة بعد ذلك بخمس سنوات تعرفت على زمن أحمد العبدالله .
وكان يقهقه ، كان يقرأ أفكاره ، رجل في الخامسة والثمانين ، قائم
فوق ناره التي يعلفها يوميا ، متحصن في جلده المتقطن فقط ، وهو يقهقه
بطريقته التي لا تجارى ، رجل في الخامسة والثمانية ينهمر تاريخه في صمته
وفي ضحكه الفريد وحركة مشيته المنكفة .

لم يكن يضحك ، كان يرفع ذراعه الى الأعلى ، غير مشير الى أية نقطة ،
لكن حركة ذراعه كانت كافية لتؤكد له أنه كان حيا بعد ذلك الصباح الشتوي ،

ولن هذه الذراع التي توجر النيران بإمكانها أن تستدعي الله وتسأله عن نهاية هذا الخراب ، وتمتد الى آخر نقطة في السماء ، وتطال الشيء الذي تريده ويتابع متهفاته ، بينما عيناه لا تطرفان ، أو ينحني فيديم اشعال النيران ، أو يباغتني بكلمة .

في الايام الاولى كان يروق له الحديث . كان يقول لي : اقترب من نفسك اكثر مما تستطيع ثم اهجرها اذا شئت ، هذا اذا استطعت هجرانها . ويقترب من مصباحه النفطي في الردمة الاولى « المستنقع » ، ليعاين زيتته ويقول « هذا هو المستنقع اذن » ، ويتابع - بعد ان يشير وكأنه يرسم دائرة - « هذا السور يتحول الى حياة اكبر منه ، لماذا ؟ » .

السور ، لم نكن نفكر في عبوره . كنا نصبحه ونمسيه ، ونعلق عليه حبال ملابسنا ، ونبني في زوايا التقاء جدرانه اقفاصا للطيور والحمام والطيور الغربية او نزرع - مع امتداده - بذور الرقي والبطيخ ، تحت الظلال الوارفة لشجيرات عباد الشمس . وفي الليل يكون السور شاهدا .

في الليل يتحول السور الى رفيق صامت ورقيق واكثر سرية . انه معي ومع احمد العبدالله وبقية الذين ينامون في النهار ، اكثر من صديق ورفيق رحلة لكنه العدو ايضا ، فاذا ندور مع استقامته وانحرافه المفاجي ، يقابلنا بذلك الهدوء والصمت الاسطوريين ، وذلك التلغيز المبهم والمحير للحيات التي تتناسل خلفه . واية حيوات ؟ لم يكن بالمستطاع حصرها في راحة اليد أو حتى الاخلاص الى كونها حقيقية . كنا نعرف انها تتنفس مثلاً ، لكنها تظل نقبضنا : كانت حرة ومحايده ، في حين كنا « سجانة ومساجين كما يقول رئيس العرفاء » .

قال احمد العبدالله :

- أتري .. ؟ أن هذا حلم

سألت

- من هو

- أنت لم تفهم بعد . فلنقل ان مدينة لام ماتت ، فلنقل هذا ... ولكن

كيف نستسيغ ابدالها بسجن ؟

في تلك اللحظة مرت من امامنا فرقة الكورال ، فتذكرت صافرات السجن وانشيد القتال في ذلك الصباح البعيد ، والاخبار المتضاربة عن وليد وسالة ، ثم انني كما لو اخترمت تلك الفاصلة الدقيقة بين الماء وبخاره رددت امامه : « هذا حلم ، هذا كابوس » خزنني في عينين لا تطرفان مستفهما : « كابوس . ماذا تعني ؟ » وكانت الشمس خلف الرابية الشمالية كابية ومحزونة ، ثم تساوت المسافة بين النور والظلمة ، فاختلطا .

وكنا في الظلمة ، في تلك الظلمة الموحشة : الليل المتصادق أبداً مع

الظلام والصيحات الغامضة خلف السور وصوت ارتطام الابواب والزعيق الفطيع الذي تطلقه الارض الحصباء في فترات متفاوتة ، بينما كان النور ينبعث في ايماضات من نار احمد العبدالله التي اخذ يعلفها باحجار غريبة بعد ان مانع السجناء في اعطائه الاوراق المتسخة والملابس القديمة . كان ينظر الى الارض بشراسة ويبرك على قدميه ويحفر بخشبة في الرمل حتى ينتهي الى نقوءات تلك الاحجار . كانت احجارا جوزية اللون ، شفافة وهشة ، فيرفعها برفق من جذورها الارضية ، ويضعها برفق ايضا وسط النيران المشتعلة ، ولم تكن تخبو بعد خفوت السنثها ، كانت تستمر في انقاد لامع اخاذ .

وعندما باتت الاحجار تنضب ، حدث ذلك التطور الذي لم احسب له حسابا . كان ذلك في صباح خريقي ، رايته يحزم فراشه ويكوم متاعه الضئيل في علبة ورقية سمكية ، ولم يكن ثمة ما يشير الاستغراب ، فلقد تعودنا على ما كان يؤديه احمد العبدالله يوميا مع بداية الصباح : اذ يستيقظ من نومه يركن الى فراشه الرث ويطويه بعناية ثم يشده بحبل ويجمع متاعه في العلبة الورقية ، ويجلس القرفصاء هنيهة ثم يدخل قبل ان يبيل ريقه ، مطيلا النظر الى الارض ومتحصنا بعباءة الوبر المرقعة . بعده يتوجه الى السور ليحاذيه في مشي سريع خفيف . اما في ذلك اليوم فقد جلس القرفصاء كمادته ودخل سيجارته ، لكنه بدل ان يتوجه الى السور حفل فراشه واتجه صوب بوابة السجن الرئيسية ، واخذ يحفر في الارض الحصباء متسعا منخفضا ، وجاء بحزمة من عاقول ووضعها في الموقد واشعلها وطفق يديم اشعالها والنظر اليها . منذ ذلك اليوم ترك صلاته المعتادة ، في الردهة الاولى ، حيث تتقاذف المستنقع ، بعد ان يتأكد من انه أصبح وحيدا ، يتربع فوق البطانية السوداء ويبدأ ينود ، لم يكن يصدر أي صوت ، كان يحرك شفثيه متيحا لفكيه حركة دقيقة ، مرسلا بصره الى الاسفل ، مسافرا في ملكوت الاحياء والاموات ، دون ان يعير انتباهها لخفق احذية النزلاء الذين يمرون امامه ، بعد ان بدأت الشمس تطلع في الجانب الشرقي من السجن والعالم .

بالاكيد كان يصلي ، كذت الى جانبه في تلك الايام نائما او ناعسا ، انظر الجسد المتحصن بالعباءة ، يلتفت مغمض العينين الى اليمين والشمال ، يمرر كفيه على جبهته وخديه ، ويهبط براسه الى الاسفل ، كمن يهبط في مرجل لا قرار له ، معطيا جسده تلك المرونة التي يتحكم بها من يعيشون اتصال الليل بالنهار ، ثم اتحين ارتعاشات جسده من داخل العباءة ، انه يخاطب اناسا لا اراهم ولا أعرفهم ، ثم يغمره السكون بينما وجهه يصفر ويرتعش منخراه ، وكأنه يحمل على كتفيه وزرا ثقيل . على انه ، احيانا ، كان يلتفت الى ليقول باشارة مقتنضة : « هل ما زالت تعتقد بالعلط والصواب ؟ » . وكنت اقول في خلواتي : ان احمد العبدالله يخضع نفسه الى مرافعات مستمرة ،

انه الحاكم والمتهم والشاهد والشرطي والسجان وأسياخ السجن . لكنني كنت أقول أيضا ، انه يحاكم الذين لا أراهم ، وليد وسالمة وملكة والذين في دائرة الاستعلامات الوطنية ، وأولئك الذين هبطوا علينا من عل ، لأن ارتعاشات جسده ، من داخل عباءة الوبر ، تتحرك مثل أسماك صغيرة تلبط في كيس شبكي فغرت عيونہ الصغيرة بدقة .

وعند الليل ، افتقده السجناء . كانت الزوبعة الخريفية خارج الردهات عارمة . اختفت النجوم خلف سماء محمرة الادييم ، والهواء المجنون ينقل ذرات الرمل بسرعة أكثر جنونا ، وفوق السور ، كانت الأسلاك الشائكة تطلق أصواتا غاضبة اذ تصطدم بها الرياح ، بينما كان أحمد العبدالله قريبا من البوابة الرئيسية يحيم اشعال ناره بالأحجار الهشة واقفا على ساقين هزيلتين ، تطير عباءاته في سورات الريح المدممة ، وبيده اليمنى يمسك جريدة السعف ويجار : هراء ، ان هذا هراء .. هذا الذي يحدث كله هراء .

كان وجهه ملتها بلون سمكة شويت على عجل بروث البقر ، وكانت عيناه لا تطرفان وهو ينظر الى نيرانه ، وخيل الي في تلك اللحظة أنه قد تتخلى عنه وعنا . جميعا . كان يخترق السور ليسافر الى حيث يشاء ، ويحرق بنيرانه كل من يعرف والذين يكره أو الذين لا يريد ان يراهم ، وكان قريبا الى النار حتى لتكاد تصفعه ، متراجعا الى ماض غير قابل للحفظ في اضمحلاله ، انه ماضيه هو وليس ماضي المدينة ، لان « لام » انتهت في عقله وقلبه . ورأى في النار صورته القديمة ، وتلك الهجرة من الكوفة الى العمارة والتوقف عند النهر الصغير ، كان يرى قافلة جده الاكبر ، وفي المقدمة « الم » كفيف البصر يتروح : « لقد أغلق الابصار جفني من شدة البصر .. فنيا لتعس النور والظلمة !! » و ...

وسمعت صوت رئيس عرفاء السجن : « هذه ولاية ؟ قف ، واستدار راجعا الى مبنى الادارة ، منحني الظهر ، متقوس الكتفين ، يدوس على أرض حصباء ، ويردد : هذي ولاية السجانة والمساجين ، قف . وبصق على الارض ، بينما اقتعد أحمد العبدالله علية من الصفح .. كان الوقت بداية الصباح ، وقد توزع السجناء الفسح الصغيرة التي تفصل بين الردهات .. كان هذا بداية اليوم السجني ، وكان ثمة من يقوم بعمل شاي الصباح والاستعداد لتهيئة طعام الغداء ، وفي الزوايا القصية كان هناك من يخطط حقائب صغيرة من خرز ملون .

واذا وصل الى البوابة الصغيرة التي تعزل القلعة الحجرية عن القلعة الجديدة ، نظر رئيس عرفاء السجن باتجاه البوابة الرئيسية المغلقة ، حيث كان أحمد العبدالله يقول « اسمع الحكمة من سبحانك ، هذا زمان !! » داخني شيء من الاطمئنان ، فقد تحدث الي بعد انقطاع . لكنني تشاءمت عندما

سألني : « وماذا بعد النار ؟ » .

الجنة . قلت هذا لقلبي . وَحَمَنْتُ أَنَّهُ يَمَاتِبْنِي . وفي لحظة تشبه لحظة انخراط قلب الطفل الصغير عندما يسمع كلبا يعمي في ليلة باردة ومطيرة ، أدركت ذلك الذي حدث : كنت مشاركا فيه ولم أكتب ، وكان قسط منه داخل عباءة أحمد العبدالله ، ولم يكن خارجه وليد أو سالمة . أما دائرة الاستعلامات الوطنية فهي التي قادت المدينة الى الخراب ، ثم اننا ، بعد هذا كله ، سلمنا لقمة سائغة . كان قرار دائرة الاستعلامات الوطنية بالقتل قرارا آثما ، لان ايا من رجالها لم يقاتلوا .. ولكن الذي كان اكثر اثما هو قرار الاستسلام ، لان رجالها لم يستسلموا ، لقد اجتمعوا الى الغزاة ، وصفوا الحساب في لقاء واحد . وكان أحمد العبد الله يورث ناره عندما سألني : « ماذا يفعلون في الردمات الأخرى ؟ »

يلعبون النرد والداما ، يتماحكون بالقراءة واصطياد الأفكار ، يتحدثون عن الماضي ويمارسون كذبا أسود وأبيض ، يكتبون رسائل عاطفية لنساء متوهمات ، يدارون الهزيمة بالشعر ، ويمالجون الخراب بأفكار المستنقع .. هذا هو السجن في آخر أيامه . واحتفظت بهذا كله لنفسي ، دون أن أجيب على تساؤله .

وفي بداية السنة التاسعة خمدت ناره فجأة .

- قل يا أحمد العبدالله .. ما هو الأمل ؟ .

وعرفت أنني تورطت . فما كان علي أن أنكل به بمثل هذه القساوة . كان موقد النار وسخا ، فجاء بأحجاره الهشة وكومها من جديد فوق الوسادة وأدنى منها عود الثقاب المشتعل . بيد أن الأجر فضلت أن تظل باردة ، وحاول مرة أخرى وثالثة ورابعة .. لكن الأحجار ظلت ترفض الاشتعال ، عند ذلك استدأر الى صندوقه الصغير وفتح عابجا وصرخ « هراء .. هراء » ذاكرتي خرج كاف .

ولم أتمكن من مصادفة الرجل وحديث السور بعد ذلك اليوم ، والآن اذ أقف في المكان الذي كانت فيه مدينة لام قائمة ، فان ما أقدم عليه أحمد العبدالله لا يمكن أن يمحي من ذاكرتي .

إن للصفة الغربية رائحة الماضي ومعناه ، فبين هذه الخرائب رايت الخراب ، وعندها اليوم اجتمعنا وليد وسالمة وأنا .

قال وليد الأحمد :

- والدي لم يموت

قالت سالمة :

- روح المدينة باقية
ولم ترق فكرتها لوليد الاحمد الذي تسأل :

- احمد العبدالله ؟
لكنه كان امامي منكربا وحزينا فقد كان اباه أيضا ، قلت :

- كان متوحدا . أخرج مقتنيات الصندوق الصغير وفرشها على الارض
وقال : هؤلاء هم جنودي ، ان جنودي لا يهزمون ، وسوف يتعين عليكم
استدعاء الموتى ، وقولوا لهم : يقول احمد العبدالله : تعالوا يا اولادي ..
تعالوا ايها البؤساء الذين قاتلتهم وهربتم .. ثم قال لي : اذهب عني أنت .
فتحركت قليلا ، غير أنه أمرني : ابتعد ابتعد . قام على حيله ، ورمى عباة
على الارض ، وتحرك باتجاه السور ، كان يمشي متطاولا ، صاعدا الى الاعلى
ومنكفئا الى الارض ، غاريا تماما ، حتى اذا ما التصق بالسور أمسك بأول
بروز قابل يخفيه في السور ، وحاول ان يتسوره . كرر الامساك بالبروز ،
وتشبث بالجدار بكلتا يديه ورجليه ، حتى استطاع في الاخير ان يعلوه
ويجلس على قمته . كان السجناء قد اجتمعوا حينئذ وهم يراقبون الرجل
العاري الذي سيفاههم للتو .

فجأة صرخ أحدهم :
- يا رئيس العرفاء .. هرب احمد العبدالله .

من الرابية القريبة ، كان أحد الحراس يراقب الموقف ساخرا ، لكنه
اذ سمع صيحة السجنين سدد بندقيته على احمد العبدالله وأطلق رصاصة ثم
ثانية ، فانهار الجسد العاري ، نصفه داخل السجن ونصفه الآخر خارج السور .

لم يكن ميتا ، قلت ، كان نائما ، وجهه الى الارض ، ورغم الضوضاء ،
اقتربت منه كثيرا فسمعته يقول : « يا عوزي الثاري ، كيف الغلط ، كيف
الصواب ؟ » .
قالت سالمة :

- كل المدن ترفضنا . اننا نعيش حياة سرية . وكان وليد الاحمد قد
غير هيأته ، فلقد تزيا بزي رجل دين ، وبحث سالمة امامي ، مثل ربة بيت
من بيوت مدينتنا القديمة .